تَبْقِينَ أَنْتِ حَبِيبَتِي

دار حروف منثورة للنشر والتوزيع

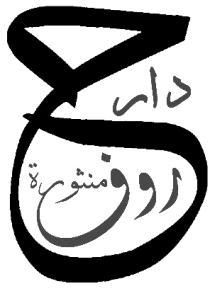

مؤسس الدار

مروان محمد

الطبعة الأولى

الكتاب: تبقين أنتِ حبيبتي

المؤلف: علاء السيد أبوشحاتة

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: كريم هلال

تنسيق داخلي: أيمن محفوظ

مراجعة لغوية: علاء أبو شحاتة

رقم الإيداع: 2022/13631م

الترقيم الدولي: 9789776867475

Website: https://horofpdf.wixsite.com/ebook

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura2011@gmail.com

هاتف جوال: 00201113006296 – هاتف جوال: 00201064054995

دار حروف منثورة للنشر والتوزيع لا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء سواء بالنشر مع الغير أو بأي وسيلة أخرى.

رواية

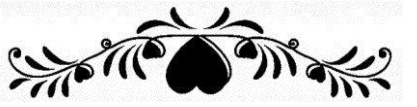

تَبْقِينَ أَنْتِ حَبِيبَتِي

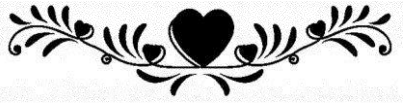

علاء أبو شحاتة

إهداء

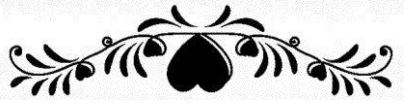

إلى رفقةِ دربي وحياتي.

إلى شبيه روحي وشريكةِ عمري بمرارةِ تعثراتِ الطّريقِ، وحلاوةِ الوصولِ إلى منصاتِ النّجاحِ والانتصارِ.

إلى ملهمتي نحو روايةِ " تَبْقِينَ أَنْتِ حَبِيبَتِي "

أهديكِ هذا العملَ.

علاء أبو شحاتة

في حضنِ النّيل العتيقِ

كعادته في الحضورِ خلال الفترةِ المسائيةِ لمكتبة مصرَ العامةِ، والتي يحتضنها نهرُ النّيل بالدّقي، بِسَمْتِه الهادئ ولباقته المعتادة، حين يحتاجُ مساعدتي أنا أو زميلتي سارّة للوصولِ إلى بعض الكتب، يجلسُ منزويًا في المكانِ الذي يسكنه كوطنٍ عزيزٍ حُرِمَ منه مغتربٌ، أو طفلٌ يتيمٌ أُعِيدَ للحياة في حضن أمّ، وكأنّ لديه اضطرابُ طيفِ التّوحد الذي يفرضُ عليه جبرية اختيار مكانٍ معينٍ لا يفارقه.

كنتُ استغربُ تنوعَ الكتبِ التي يقرأها، ظننته كحاطب ليلٍ أو مبتدئٍ لا يدري ما الذي يريده على وجه التّحديد.

كتبٌ من قديمِ الأدب العربيّ كالأغاني للأصفهانيّ، الكوميديا الإلهية للشّاعر الإيطاليّ " دانتي أليغيير " من الشعر الملحميّ، مسرحيات لـ "شكسبير"، تراجم لشعراء وكتاب قدماء ومحدَثين، كـ "الفرزدقِ " و "طه حسين "، " غسان كنفاني " و "جبران خليل جبران "!

اعتادت " سارّة " أن تُعْملُ توقعاتها حول ما يُدّونه "علاء" في دفتره الذي لا يفارقه ذهابًا وجيئةً ، وكأنّه عينٌ ثالثةٌ ترشده الطّريق.

لم يكن هذا فقط شغلنا الشّاغل أنا و" سارّة " بقدر ما كنّا نتعجبُ من الحالة التي كانت تصيبه في أثناء اندماجه في القراءة وتدوين الملاحظات، وكأنّه قد تلبّسته حالةٌ من حالات الفناء الصّوفيّ، أو مغادرةِ روحه لعالمنا المحيط.

حالةٌ غريبةٌ من الإغماء تستمرُ لبضع دقائقَ، لا نكادُ نلاحظُ منها سوى تعرّقه الشّديد، والرّجفة التي تصيبه عن استحياء، وانكفائه على الطّاولة التي يجلسُ إليها.

حتى في هذه الحالة التي يفقدُ فيها الوعي - أو كما نظنُّ - يظلُّ محتفظًا بطباعه الهادئة، فلا يكادُ يشعرُ به أحدٌ.

ها هي الحالة تعاوده...سارعتُ أنا و" سارّة " للاطمئنانِ عليه...هادئٌ حتى في غفوته وانفصاله عن واقعنا، بملامح طفلٍ صغيرٍ غافله ما يُزّينُ الرّجالَ مبكراً ، أعطته طابعَ ووسامةَ أبطالِ المسلسلاتِ التّركيةِ التي غزت قلوبَ بنات قومي حدَ السّحر والافتتان .

غافلتني " سارّة " وقذفت محتوى كوبها من الماء في وجهه... يفيقُ من غفوته معتذرًا وكأنّه هو من فعل فعلتها الحمقاء.

يلملمُ أوراقَه المبَعثرة على الطّاولة، تناوله "سارّة" الدّفتر الذي التقطته من أمامه وقت غفوته، يخطفه منها متعجبًا كيف فارق يديه وهو شديدُ الحرص عليه كأمٍّ خبّأت في جسدها ولدها في يومٍ عاصفٍ مطيرٍ حين اتخذت السّماء سقفًا غدر بها، ولم يحميها من طلقاتِ الغيومِ...يستأذنُ سريعًا مغادراً المكتبة مع ابتسامة اعتذارٍ ونظرة وعدٍ لزيارة مقبلة.

جلسنا أنا و" سارّة " نحاولُ وضعَ تفسيرٍ منطقيّ لحالته.

- " سارّة " : هل تظنين يا "جاسمين" من خلال دراساتك في علم نفس السّلوك أن صاحبنا يعاني من نوباتٍ صرعيةٍ تجعله يقعُ أسيرًا لتلك الحالة الغريبة؟

- أجبتها متعجبةً من تسرعها في وصف ما رأته..لا أظنُّ يا " سارّة "، فالصّرعُ له علاماتٌ مختلفةٌ منها التّحركاتُ التّشنجيةُ اللاإرادية، وحدوث ارتعاشاتٍ حول العين أو الفم في حالة حدوث نوبات الصّرع الخفيفة، وفي هذه الحالة يُظهر المصاب علاماتِ الشّرود الذّهنيّ من غير أي تغييرٍ يطرأ على وضعيته التي كان عليها قبل حدوث النّوبة.
- لكنّه يا " جاسمين " يعاني من شرود ذهنيّ !

سرحتُ بخاطري قليلاً في حالته، وقد تداخلت الأفكار وتصارعت بداخلي حول تفسير تلك الحالة الفريدة التي لم تمرّ عليّ من قبل.. أفقتُ على صوت " سارّة " وهي تجذبني من ذراعي...

- " جاسمين " أين سافرتِ بخيالك ؟
- لعلها حالةٌ من الإغماء يا " سارّة ".

أمسكت " سارّة " بخصلة من خصال شعرها تتأملها وتداعبها، ثم قالت :

- لكن ما أعرفه عن الإغماء أنّه حالة من فقدان الوعي المؤقت بسبب انخفاضٍ في تدفق الدّم إلى المخ، وتكون حالة الإغماء مصحوبةً بسقوط المريض على الأرض إذا كان واقفًا أو جالسًا ثمّ يسترجعُ وعيه بعد ذلك تلقائيًا... وهذا لا ينطبق على الحالة التي معنا.
- نظرتُ إليها باستغراب...هل صارت حالةً تستوجبُ الدراسةَ يا " سارّة " ؟

بنظرةٍ ماكرةٍ :

- وهل هناك فرصةٌ أفضل من تلك الفرصة الحية أمامك كي تطبّقي عليها رسالتك للحصول على درجة الماجستير؟
- متى تتوقفين عن استغلال الفرص يا " سارّة " ؟ ثمّ هممتُ بمغادرة قاعة المكتبة.

أمسكت " سارّة " بذراعي مجدداً...

- انتظري يا غريبةَ الأطوار، ماذا عن تفسيرك إذن؟

أجبتها، وقد نال منّي الضّيق، كالليل حين يرخي سدولها على الدّنيا معلنًا ظلمته وعتمته الكئيبة...

- هناك يا " سارّة " ما يُسمّى بالإغماء الوعائيّ المبهميّ، والذي ينتجُ في أثناء التّوتر والضّغط النّفسيّ، أو بعد المرور بأزمة صعبة، أو إثر الشّعور بالألم، وهذا النّوع من الإغماء يحدثُ في أثناء الوقوف أو الجلوس، وعادةً ما يعودُ الشّخصُ إلى وعيه في غضون ثوانٍ إلى دقائقَ معدودةٍ.

تنتفضُ " سارّة " من مكانها...سارعت إلى هاتفها، ثمّ اقتربت منّي كي تريني بعض الصّور ، تعجّبتُ من انتفاضها، ولكنّ ما رأيته ألجم لساني، وكأنّي هذا الممسوس الذي تمكّن منه شيطانه، فعجز عن الحديث أو الاستجارة بكلمات الله التّامات التي يلوذُ بها المسلمون...لا أدري كم مرّ من الدّقائق كي أستعيدَ قدرتي على الكلام ...

- كيف تسمحين لنفسك يا " سارّة " أن تلتقطي تلك الصّور لدفتره؟

حاولت "سارّة" أن تبرّرَ موقفها المخزي، معللةً ذلك بأنّها محاولةٌ منها لتفسير ما حدث لتقديم يد المساعدة والعون.

- لا يحقُّ لكِ بأيةِ صورةٍ من الصّورِ أن تقتحمي عالم الرّجلِ والولوجِ خفيةً إلى خصوصياته حتى لو من باب النّية الطّيبة والمساعي ال....

قاطعتني "سارّة"...

- انظري فقد أمسكت بأول خيطٍ لحلّ اللغز... صاحبنا له حبيبة يكتبُ لها في دفتره الذي يدّون فيه ملاحظاته حول ما يقرأه من تلك الكتب.

حاولتُ انتزاعَ هاتفها منها كإعلانٍ صاخبٍ يُعبّرُ عن رفضي هذا الاقتحام الذي لا يختلفُ كثيرًا عن سلوك اللصوص وقطاع الطّرق.

- نازعتني الهاتف..بدأت تقرأ بعضًا من السّطور..

" عنيزة " ! لقد شاب القلبُ، ووهنت عزيمةُ الرّحيل.

" عنيزة "...بحثتُ عن قلبك الإعصارِ ومشاعرك المحيطِ طويلًا طويلًا , وكم زرتُ فيكِ الصّورَ وقبّلت العيون، حاملاً معي في روحي ونفسي صورتك الحقيقة، غير أنّي يا منايَ وترياق هوايَ قد سئمتُ التّرحالَ والبحثَ في خبايا الصّور وأسرار النّفوس.

فأنا وإن كان حبّك يدفعني ويأمرني للبحث عنه واحتضانه للأبد، إلّا أنّني أراكِ أغلى من أن أعرضك على نخاسات القلوب وبائعات الهوى العَفِن ".

نزلت الكلمات علينا كصاعقة من السّماء في ليلةٍ مطيرةٍ من ليالي كانون الثّاني، فمن هذه الحبيبة التي يعاتبها هذا العتاب المحمول على أكف المرارة والوجع الرّهيب؟ ومن تلك المرأة التي سئم من التّرحال بحثًا عنها ؟

في نظرةٍ ساخرةٍ... وهل ضاقت به الدّنيا ليكون اسم حبيبته هذا الاسم الأثريّ العتيق؟ سرحت بخاطري:

- الأمرُ يزيدُ تعقيدًا يا سارّة وكأنّه وهمٌ أو سرابٌ.

بطريقتها السّاخرة :

- دعيني أمنحكِ الوصفَ الذي تبحثين عنه يا "جاسمين"، " كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا "

ضحكتُ منها :

- وهل تظنّين أنّي سأعدمُ دليلًا نقليًا من كتابي المقدّس يا سارّة كما ذكرتِ أنتِ من القرآن الكريم؟

" وَيَصِيرُ السَّرَابُ أَجَمًا، وَالْمَعْطَشَةُ يَنَابِيعَ مَاءٍ فِي مَسْكِنِ الذِّئَابِ، فِي مَرْبِضِهَا دَارٌ لِلْقَصَبِ وَالْبَرْدِيِّ.".

- لن تعدمي الرّد كعادتك يا "جاسمين"، ولكن دعينا نسترح قليلًا من هذه المباراة في استحضار أدلة وحي السّماء، أو هذا اللغز الذي يزداد تعقيدًا، أخبريني يا صديقتي عن آخر قصصك مع أنطوني.

لم أستطع إخفاء انفعالي حيثُ تسارعت نبضاتُ قلبي وتصارعت خيبات الأمل بنفسي المكلومة من مرارة التّجربة وبشاعة الأحداث التي مررت بها.. قررتُ أن أُنهي هذا الحوار العبثيّ قبل أن يبدأ..

- هذا موضوع مات قبل أن ينثرَ ما في رحمه على أرضِ الحياةِ، فيُخلّف مزيدًا من الأوجاع والمسوخ والعلاقات السّامة التي تُعَجّلُ برحيلنا قبل الأوان بأوان.

في محاولة سريعة منها كي تخفّفَ من حدة انفعالي ..

- مسوخ كمسوخ الزّومبي، تلك الجثة المتحركة التي أثارتها وسائل سحرية من السّاحرات؟

انتزعتُ يدي من قبضتها لمغادرة المكتبة متعللةً بموعدي مع أمّي كي نزورَ طبيبها.

بطريقتها المعتادة وتدخلها في تفاصيل حياتي من خلال مظلة الحبِّ وعهود الصداقة السّليمانية..

- سأتركك الآن على أن تخبريني غدًا.

ضحكت منها :

- غدًا صديقتي اللدود، ولكن عذرًا، فهذا حديثٌ أمره يطولُ وأنا الليلة مشغولٌ .

وكعادتها وذهنها الحاضر لم تترك لي اقتباسي لتلك الجملة من البرنامج الإذاعي " أنا وصديقي الفيلسوف " بصوت الإذاعي "سعد الغزاوي" ردًا على الممثلة "سميرة عبد العزيز"، فباغتتني بتقليدها لصوت الممثلة "زوزو نبيل" بصوتها الذي

لا تخطئه أذن في حلقات ألف ليلة وليلة عبر أثير الإذاعة المصرية العتيقة حين ينقذها ضياءُ الفجر من سيف شهريار..

- مولاي .

أنتِ في جلدي

ومع إعلانِ انتصارِ الليل في معركته مع غريمه النّهار، وسيطرة العتمةِ على مقاليد الحياة، تسللتُ إلى غرفتي بحذرِ الفارِ من معارك الموت خوفًا من أداة القتل التي يختبئُ خلفها خوفُ الصّيادِ، فلستُ على استعدادٍ للدّخول في جدال سفسطائيّ مع أمّي عن أسبابِ إهمالي لمسألة الزّواج التي تصّرُ هي عليها، وكيف أنّها - ككل أمٍّ - تتمنى أن ترى أحفادها في عين حياتها ؟

ألقيتُ بجسدي المتهالكِ على سريري، هذا الصّديقُ الكتومُ الذي يُمسكُ عن فضح عوالمي السّرية في عالم القراءة وتدوين المذكرات، احتضنته برقةٍ لا تخلو من شيءٍ من العنف ، ولمَ لا ؟ فقليلٌ من العنفِ لا يضرُ .. ها أنا أنزوي بأحد أطرافه.. يومٌ عصيبٌ من العمل، معلمٌ في الصّباحِ يكابدُ تقلباتِ الدنيا لاستكمال رسالته التي ورثها عن الأنبياء، ثم عادتي اليومية في ارتياد مكتبةِ مصرَ العامةِ لمعالجة إدماني للقراءة بمزيدٍ من الشغفِ والإدمان.

أشعرُ بإرهاقٍ شديدٍ هذه المرّة.. لعلّه من جراء ما حدث لي اليوم من حالة الاندماج فيما أقرأ ، والتي تعاودني على فتراتٍ متقطعةٍ.

كم هزمني الخجلُ اليومَ حين أفقتُ على وقع برودة الماء الذي قذفته أمينة المكتبة في وجهي ! يا لها من سمجة.. هذه المرأة غريبة الأطوار، كيف تسمحُ لنفسها باقتحام وقت خلوتي؟

ماذا سنقرأ اليوم أيتها النّفس النَّهِمة التي لا ترتوي؟

" رسائل "غسان كنفاني" إلى "غادة السمان".. هذا العاشق الذي لم تمهله يد الغدر الصّهيونية ليدافع عن ثنائيةِ حبِ الوطنِ والدّفاعِ عنه، وحبه لـ "غادة " .

" أنتِ في جلدي، وأحسكِ مثلما أحس فلسطين، ضياعها كارثة بلا أي بديل.. لقد صرتِ عذابي، وكُتِبَ عليّ أن ألجأ مرتين إلى المنفى هاربًا أو مرغمًا على الفرار من أقرب الأشياء إلى الرّجل وأكثرها تجذُّرًا في صدرهِ، الوطن والحبّ، "غادة"، عندما أمسكت الورقة لأكتب، كنتُ أعرف أن شيئاً واحداً فقط أستطيع أن أقوله، وأنا أثقُ من صدقه وعمقه وكثافته، وربّما ملاصقته التي يخيّلُ إليّ الآن أنّها كانت شيئاً محتوماً وستظلُ كالأقدار التي صنعتنا، إني أحبّك " ... "غسان" .

يبدو أنّني لن استسلمَ الليلةَ لسلطانِ النّومِ بسهولةٍ أيها العاشق الولهان حتى أنتهي من فضّ رسائلك التي تفضحُ طوفان حبّك لـ " غادة ".. يا لها من قصةِ حبٍ صادقةٍ، ومثالٍ يحتذى، أين لي بمثل حبيبتك يا " غسان" ؟

قاطعتني حبيبتي..

- أولكَ حبيبةٌ غيري يا " علاء "؟

- حبيبتي وملهمتي الوحيدة.. تأخرتِ هذه المرّة كثيرًا عنّي حتى بلغ منّي الشوقُ مبلغه، وضاقت بي سبلُ العاشقين .

بنظرةٍ حادة..

- وهل تأخري عنك يبررُ لك أن تتمنّى غيري؟ ثمّ ألم أخبرك من قبل أنّني بجانبك عندما أشعرُ بحاجتك المُلِحةِ لي؟.. أخبرني عن قصة اليوم التي جعلتك تخونني في أمنيةٍ تتجسدُ في " غادة السمان ".

حاولتُ أن أخفي ارتباكي معتذرًا عن أمنيةٍ صنفتها ملهمتي في خانة الخيانات..

- إنّها قصة حبٍّ صادقةٍ لم يمهلها القدرُ أن يجني أصحابُها ثمراتِ حبّهم ويتذوقوا....

قاطعتني قائلةً :

- أخبرني المزيد.
- في رأيي يا "عنيزة " أن " غادة " كانت امرأة استثنائية بجرأتها وثقافتها وموهبتها الأدبية التي جعلت منها رائدةً في مجالها الأدبي ، مما جعل قصة "غادة السمان" و"غسان كنفاني" حكايةً تُروى.
- ولماذا لا تناديني الليلة باسم " غادة " أيها الماكر؟ لا مانع أن تضيف هذا الاسم لقائمة الأسماء التي يروق لك أن تناديني بها مع كل قصة تستدرجك نحو تفاصيلها ودهاليز من وقعوا أسرى لها.

- يبدو أنكِ كعادتك وكعادة كلِّ أنثى لا تغفري بسهولة حبيبتي.

نظرتْ لي تلك النّظرة التي يعجز أمامها فلاسفة العالم دون تفسير لها، ثم قالت :

- كلُّ أنثى !

بادرتُ معتذرًا مقدمًا قرابين طلب العفو والاسترحام...

- يا ستَّ النّساء.

وكأن الكلمة أرضت شيئًا من غرور المرأة...

- اكشف عمّا لديك.
- حاولتُ كثيرًا أن أفهم ذلك الغموض الكامن خلف انجذاب روحٍ إلى أخرى، ما الذي يدفع أحدنا للشّعور بالانتماء لشخصٍ آخر يشاركه الكوكب ذاته ؟ ما سرّ كلّ هذه المشاعر المعقّدة والمتشابكة التي قد تدفعُ أحدَنا لربط سعادته وتعاسته بكائنٍ آخر حتى وإن لم يبادله ذرّة ؟ أتساءلُ وأضعُ عشراتِ الإجاباتِ وأختمُ دائمًا بالإجابة الأكثر منطقية وإراحة لي : لا أعلم .
- هل تشكُّ يا " علاء " في حبّها لـ "غسان "، وأنّها لم تكن تبادله المشاعر ذاتها التي جعلته أسيرًا لدائرتها ؟
- بالعكس فأنا أومن تمامًا أنّها أحبّته كما أحبّها تمامًا .

ضحكت ضحكتها السّاخرة كعادتها :

- لا تتعجّل الحكمَ أيها الأغر، فالليل أمامنا لا يزالُ طويلًا لتتكشف أمامنا الحقائقُ وتزول عنها عتمتها .

تمنيتُ أن أصرخَ في وجهها قائلًا : متى تتوقفين عن إفساد كلِّ قصة حبٍّ آمنت بها وخلدتها دواوين العاشقين؟

نظرت نحوي، وهي تعبث بلحيتي ..

- لستَ في حاجةٍ إلى أن تصرخ يا صغيري، فأنا ملهمتك التي تقرأ ما يدور بخلدك ، لا تتعجل النتيجة، ودَعْ القصةَ تفصحْ عن مكنونها، ولكن دعني أطرح سؤلًا افتتاحيًا لتلك الليلة الاستثنائية... سأفترضُ أنّ "غادة" كانت صادقة في مشاعرها لـ"غسّان" وتبادله الحبّ، فكيف تستمتعُ بنشر نصوصٍ يتضّحُ جليًّا التّذلل فيها لها، والرّجاء الحار بالوصل، والتّصريح المباشر بأنّه سيظلّ يتبعها دومًا إلى أن يفنى؟

قاطعتها متعجباً :

- الحبُّ ليس فيه تذللٌ خاصةً وإن صدق المحبّان في حبّهما، ثمّ ألا ترين هذه المقدمة من كتاب الرسائل ؟
- رسائل "أنسي الحاج" ؟

تعجبت من ذكرها لهذا الاسم ...

- ما لنا و" أنسي الحاج " الآن يا حبيبتي؟ الحديث عن رسائل "غسان" إلى "غادة".
- لا تتعجل يا صغيري، فستعرف.. ويا ليتك لا تعرفُ .

تجاهلت طريقتها التي اعتادت عليها كي تزلزل أرض معارفي ، وتبعثر ما لدي من معلومات وبديهيات عن القصة التي أتحدثُ عنها، تجاهلتها وبدأتُ في قراءة المقدمة...تقول "غادة" في الصّفحات الأولى في الكتاب : إنّه كان هناك عهدٌ

بينها وبين "غسّان" حول نشر هذه الرّسائل، حيث إنّه مَن يفارق الحياة قبل الآخر، يتكفل الطّرف الثّاني بنشر هذا البوح ليكون نموذجًا للحبّ التّعبيريّ الذي يحلمُ به الكثيرون.

لم تنتظر حبيبتي كثيرًا، وباغتتني بسؤالِ شكٍ لولبيٍ ليفسد عليّ دفاعي :

- أتساءلُ إن كان هذا الأمرُ صادقًا أم لا ؟ فالمطّلع على تلك الرّسائل سيتشرّبُ الخيبةَ المدسوسةَ بين السطور، وسيتجرعُ مرارةَ الخذلان الذي شعر به "غسّان" في هذه العلاقة، وهو يصفُ نظرة أصدقائهما لحبّه لها في تلك المرحلة عندما أوضح لها أنّه يعلمُ أنّهم يشفقون عليه أمامه ويسخرون منه خلفه لأنّه يتبعها ، وهي بالمقابل لا تعيره اهتمامًا !
- لا دليل على ادعائك يا ستّ النّساء ... قلتها بابتسامة الطّفل الذي يظنُّ أنه خدع أمّه وهو لا يعلم أنّها تحفظه عن ظهر حبٍّ .
- وماذا عن ذلك التّجاهل والبرود الذي قابلت به "غادة" كلّ تلك الرّسائل؟ ففي أغلب رسائل "غسّان" تقرأ: " اكتبي لي، أرجوكِ اكتبي لي الآن ".

شعرتُ بغصةٍ في حلقي، ولكنّي ما زلتُ مستميتًا في الدفاع عن "غادة" وحبها لـ"غسان" .

- لم يكن الحبُّ الصادقُ يا "علاء" يومًا ما وسيلةً لإشباع غرور النّفسِ وملءِ كلِّ تلك الثّقوب النّاقصة، لم يكن لتحصيل الشّهرة أو الرّغبة في الإذلال، إنّها كانت ترسلُ

حروفها له بالقطّارة .. بل إنّها ربّما كانت تردُّ على كلّ عشرة رسائل برسالةٍ واحدةٍ ! .. أرسلت له ذات مرّة رسالة من لندن تحوي هذه العبارة "شو هالبرد ؟"، فقط يا "علاء"!

سألتها متحيرًا:

- هل تقصدين أنّها كانت تستدرجُه ليكتبَ لها؟

أجابت بأسفٍ:

- يبدو لي "غسّان كنفاني " الطّرفَ الأكثر حبًّا في علاقته بـ"غادة السّمان"، وكانتْ تبدو نرجسيّة وباردة في التّعامل معه، وكأنّها تتفاخر بأنّها أوقعتْ في شِباكها كاتباً كبيراً ومناضلاً بحجم "غسّان كنفاني".
- لا زلتُ على رأيي حبيبتي فقد كانتْ تبادلُهُ الحبّ بالحبّ.
- هل تظنُّ يا "علاء" أنّ زواجه بأخرى وحياتَه العائليّة المستقرّة والخاصة جَعَلاها تتجنّبُ الدّخول معه في علاقةٍ جديّة لا أملَ منها ؟

وقع عليّ كلامها كسكين حاد يتفنن في تمزيق أوصال إيماني بتلك القصّة الرّومانسية التي ألهمت الكثيرَ من العاشقين :

- هل تزوّج من غيرها ؟
- دعك من تلك الحقيقة التي فاجأتك، ولكن اقرأ لي الرّسالة التّالية :

حاولتُ تجاهلَ هول المفاجأة وبدأتُ القراءة :" غادة" يقولونَ إنّ علاقتنا هي علاقةٌ من طرفٍ واحدٍ، وإنّني ساقطٌ في الخيبة ، قيلَ : إنّني سأتعبُ ذاتَ يوم من لعقِ حذائك البعيد.. يُقال :

إنّك لا تكترثينَ بي، وإنّكِ حاولتِ أن تتخلّصي منّي، ولكنّني كنتُ مِلْحاحاً كالعَلَق.. يشفقونَ عليّ أمامي، ويسخرونَ منّي ورائي، ويقرأونَ لي كما يقرأونَ نماذجَ للشّاعر المجنون.."، في محاولةٍ يائسة منّي حاولت أن أجدَ مبررًا ومخرجًا لكلا العاشقين :

- إذا كانتْ غادة قد أرادتْ من نشر رسائل "غسّان" لها التّشهيرَ به وإرضاء نرجسيّتها وغرورها، وتسليط الضّوء عليها، فهي بذلك كشفتْ للكثير من القرّاء عن "غسّان كنفاني" النّبيل، "غسّان كنفاني" الإنسان.

بعبثية المنتصر، وثقته في إنهاء جولته مع فريسته سألتني :

- وما دليك؟
- ألم يمرُّ عليكِ اعترافها ؟ "نعم كان ثمّة رجلٌ اسمه "غسان كنفاني"، وكان له وجه طفلٍ وجسدُ عجوزٍ، عينان من عسلٍ، وغمازة طفلٍ، لم يكن فيه من الخارج ما يشبه صورة البطل التقليدية، والأبطال الحقيقيون يشبهون الرّجال العاديين رقة وحزنًا".. ، ما زلتَ تدافع عنها رغم تهاوي أدلتك !.. أخبرني ما الذي جعلك تتعلق بتلك القصّة التي تراها مثالية وتحتذى؟

نظرتُ في عمق عينيها :

- يا ليت لي امرأةٌ تحبّني كما أحبّت "غادة السمّان" "غسان كنفاني "!.. هذه أمنية مكتومة يا "عنيزة " في نفوس كثير من الرّجال الذين يعادون "غادة السمّان" ، ويقفون

ضدها ويشوّهونها ويجرّمونها، وفي نفوس نساء كثيرات يكادُ خوفهن يأكلهنّ ويحولّهنّ إلى مسوخٍ .

لم تستطع أن تمنعَ ضحكها، ساخرةً منّي :

- وماذا بعد يا سفير ذكورية الرّجال وحامل لواء أمانيهم ؟ متجاوزاً سخريتها اللاذعة :
- لقد تمنّيتُ كثيرًا أن تكتبَ عنّي المرأةُ التي أحبّها كما كتبت وتكتبُ "غادة السمّان" عن "غسان كنفاني".. كم أتمنّى أن تبادر تلك المرأة وأن تنشرَ رسائلي لها، تلك الرّسائل التي اشتهيتها فيها، وأخبرتها عن أحلامي بها.. ماذا فعلنا في تلك الليالي المجنونة، لنفعل ما لم نستطع فعله على أرض الواقع .

حاولت أن تخفي معالم ثورتها قائلةً :

- ألا تتفضل بقراءة تلك الرّسالة التي أوردتها "غادة" في كتاب الرّسائل ؟

وكأنّي أحتمي بها منها :

- " أشعرُ بحاجة لا توصفُ ، لا يصدّقها العقل ، إليكِ أشعر بجوع إلى صدرك ، بنهمٍ إلى وجهك ويديكِ ودفئك وفمك وعنقك، إلى عينيك.. بنَهَم إليكِ أشعرُ بجوعٍ وحشيٍّ إلى أخذكِ إليّ.. احتضانك واعتصارك وإعطائك كلَّ ما فيّ من حاجةٍ إلى أخذ الرّعشةِ الإلهيةِ وإعطائها، كياني كلّه تحفّز إليك، إنّك تُخيّلين عليّ أفكاري وتلتهمينني".

لم أستطع كتم غيظي هذه المرة واندفعت اندفاع المنتصر :

- هذه الرّسالة ليست لـ "غسان كنفاني" !
- صدقت يا "علاء" ، ولكنّها موجهة لـ "غادة" .
- ماذا تقصدين ؟
- هل قرأتَ كتابَ رسائل.....؟

قاطعتها :

- عن ظهر قلب .
- لا تتعجّل يا حبيبي ، هل قرأتَ كتاب رسائل "أنسي الحاج" إلى "غادة السمّان"، والذي صدر عنها سنة 2017 ؟

لم أتحمّل هذه المرّة وقعَ الخبر:

- هل تقصدين أنّ هذه الرّسالة الفاضحة أرسلها لها عاشقٌ آخر؟
- نعم وأكثر من ذلك، "غادة" كاتبةٌ جريئة لذلك لا أستغربُ لو نشرت صورًا حميمةً ، فكتاباتها تدل أنّها لم تكن تخجل من شيءٍ وهي صغيرة، والآن أيضًا لا تخجل من ذلك وهي كبيرة.. وبالرغم من أنّه ليس للرّسائل محتوىً مهم ، فهي كرسائل المراهقين، لكنّي أعتبرها خيانة أمانة ممّن أحبّها وأهداها مشاعره برسائل يُفترضُ أن لا يشعر بها غيرها، ورغم أنّهما غير موجودين الآن ليتألما من خيانتها، لكنّي أرى أن ما فعلته "غادة" مؤذٍ لكلِ مَن يحبُ "كنفاني" و"الحاج" ويحبّها.

دارت بي رأسي، وتحطمت كلُّ الثّوابت أمام وقع الحقائق الصّادمة التي نزلت عليّ كالصّاعقة:

- هل تقصدين أنّها خانت حبّها؟ أو أنّها كانت تعبثُ مع مَن أحبّوها؟

ضحكت حتى الثمالة ثمّ سخرت قائلةً :

- من التّعليقات الهزلية على ما فعلته "غادة" : "المتنبي " يؤكدُ أنّه لم يرسل رسائل حبٍ إلى "غادة" ، وعلى كلِّ كاتبٍ قبل وفاته أن يعلن أنّه لم يكتب رسائل لـ "غادة" .

بحرقةٍ ومرارةٍ بالغةٍ :

- وما ذنب "غسان" كي تتلاعب به وبعذابه في حبها ؟

اعتدلت في جلستها، وقد تدثّرت بدثار الجدية والحزم :

- لا تظلمها ، فكلاهما خائنٌ يا عزيزي .

ما أسوأ أن ترى لوحتك باهرة الجمال تتحطّمُ أمام عينيك !

- ماذا تقصدين؟

- هناك إشكاليةٌ أخلاقية يا مهجة قلبي أيها الأغر في عوالم الحبّ ودهاليزه.. فـ "غادة السمّان " كانت متزوجةً حين وقع "كنفاني" في حبّها، وهو أيضًا كان زوجًا وأبًا، بل وصل الأمرُ بأحد المعترضين على تلك الازدواجية أن صبَّ جام غضبه على "غسان" قائلًا : "غسان" هو مجرد نذل كبير.."كنفاني" كان متزوجًا من الدنماركية "آنا " والتي افتدته بحياتها، ومع ذلك كان يخونها مع امرأة صارحته منذُ البداية بأنّها لا تحبّه، ثمّ هل تعلمُ أنّ هناك مانعًا آخرَ لم يكن ليسمح أن تُكلّل تلك العلاقة بالزواج ؟

- تقصدين عدم زواجه منها قبل أن تتزوج من غيره؟

سخرت من ردي :

- أخبرتك أنّ معلوماتك مغلوطة ، وأنّك تنبهرُ دائمًا بحماس البدايات ورسائل الغزل، ولا تمعن النّظرَ في خلفية الأحداث.."غادة" مسلمة و"غسان" كان مسحيًا، وهذا العائق كان كفيلًا لإنهاء العلاقة ، لكنّها استمرت على النّحو الذي سطره ديوان العاشقين.

في محاولة أخيرة، حاولت أن أدافعَ عن "غادة" بقولي :

- أرفضُ تلك الهجمة العنيفة التي وجّهت ضد "غادة السمان" ، وأستهجنها، فإن من حق "غادة" نشر أي شيءٍ تملكه بوجود مَن أرسله أو بغيابه، ثمّ إنّها نشرت رسالة لشاعر مُتَوفّى ربّما كنوعٍ من التّقدير والاحترام والاحتفاء بأديبٍ محبّ ، أو دعينا نقل : لجعلنا نستمتع برسائل جميلة ودافئة كتبها الشاعر "أنسي الحاج"، أو لشعورها بالحاجة لحبٍ مثل الذي احتوته الرّسائل فقررت نشرها .

تابعت سخريتها قائلة :

- الخيانة لا تُبرّرُ ، ومثالُك العذريّ لا يُحتذى به .

بنظرةٍ كلها حسرةٌ وانكسارٌ سألتها :

- فهمت رسالتك أيتها العنيدة .
- أحسنتَ، وعليك مواصلة البحث والتّنقيب عنّي في مزيدٍ من القصص والحكايات .

قاطعتها :

- يبدو أنّ أمّي قادمةٌ لتطمئن عليّ، وسأتظاهرُ بالنّوم .
- مسكين يا "علاء" ...

تلتقطُ كتاب الرّسائل الذي وقع بجواري وتضعه على الطّاولة ، ثمّ تُحكمُ وضع الغطاء على جسدي المُتعَب الذي ضعضعته أحداثُ اليوم الطّويل .. وها هو يخونني هذه المرة ويستسلمُ لكتائب النوم وسلطانه ليمنحني جرعة راحة لمواصلة البحث عنها في غدٍ قريبٍ.

علاقاتٌ خَطِرة

وصلتُ لعملي في اليوم التّالي، وكما توقّعتُ وجدتُ "سارّة" كعادتها في الإصرار وعدم النّسيان خاصةً ما يتعلّقُ بي وكأنّ أمّي أوصتها عليّ ، أو كأنّها أمٌّ لي من بعد أمّ .

- ماذا وراءك يا عصام ؟ ... بطريقتها السّاخرة التي لا تخلو من الاستفزاز.
- علاقة وانتهت يا "سارّة" .

نظرت لي ملياً :

- أليس "أنطوني" ابن خالتك الذي تعاهدت أمّك وخالتك أن يكون زوجك ، وأنّ مَن يجمعهم اللهُ لا يفرّقهم البشر؟ أليس هو الأنسب لكِ دينيًا وطائفيًا ؟ أليس هو الذي يعاملك بكلِّ لطافةٍ واهتمامٍ يحسدك عليه كلُّ مَن كان يراكما معاً؟

تنهّدتُ ، وقد سرحتُ بخاطري في تلك العلاقة الخطرة التي أرهقتني ، وشوّهت الكثير من غرفاتِ قلبي، وجعلتها مبعثرةً، لا تقوى على الإقبال على الحياة، فضلًا عن أن أعيشها بأريحية وسلام نفسي :

- لا يغرنّك يا "سارّة" ما كان يظهره من لطفٍ ومبالغةٍ في المعاملة الرّاقية، كنتُ في كلِّ مرةٍ يتجاوزُ فيها في حقّي ويتعمّدُ تهميشي والتّقليل منّي، كنتُ ألتمسُ له الأعذارَ..كم كنتُ بلهاء عندما يعودُ معتذرًا، ويجلسُ عند قدمي يبكي

كالأطفال، ويعترفُ بذنبه وتجاوزه الذي لا يليقُ .. لكِ أن تتصوري كم كنتُ ساذجة حين كان يخدعني وينطلي عليّ الزّيفُ والخداعُ ! ثمّ إذا بي أمسحُ بيدي على شعره ، وأجفّفُ دموعه وأضمّه إلى صدري بحنان أمٍّ تعودت أن تغفرَ وتتجاوزَ كي يهدأ ويطمئن .

كعادتها في كلِّ مرّةٍ تراني قد تأثرتُ حزنًا وكربًا، تسارعُ لتفجير قنابل الضّحك التي لا تعدمها ، قالت :

- مخالفة شرعية يا حلوتي ... كيف تسمحين له بهذا الحضن غير الشّرعيّ؟ وماذا عن دقات قلبيكما عندما تداخلت الأذرع وتعانقت العيون ؟

صحتُ فيها ولم أستطع أن أمثلَ دور الجدية هذه المرة، فهي ماهرةٌ جدًا في إضحاكي وإخراجي من أحزاني :

- إن لم تنتهي عن هذه العبثية، فلن أحكي لك مجددًا.

اندفعت نحوي وعانقتني :

- ها أنا أخطأتُ في حقّك ، أفلا تحتويني كما كنتِ تحتوي هذا الأحمق الذي لم يُقّدر قيمة الجوهرة التي وهبتها له السّماء !

لم أستطع منع دمعةٍ حائرةٍ كانت تؤرقني ، كم انتظرتُ التّخلصَ منها، وكأنّها غيمةٌ ملعونةٌ تأبي أن تروي الأرضَ بمطرِ السّماء :

- لطافته كانت مزيفة يا "سارّة" ، لديه تضخمٌ غيرُ مسبوقٍ في حبِّ الأنا، والسخرية من الآخرين، لا يرى

إلّا مصلحته والتفاخر بمكتسباته أمام الناس، دعيني أخبرك عن أمرٍ مضحكٍ ويدعو للسخرية.

قاطعتني :

- لستُ وحدي مَن يجيدُ فنَّ الإضحاك يا "جاسمين" .
- في كثيرٍ من الأوقات يا "سارّة" عندما كنتُ أسافرُ إلى بيروت ، كان يتعّمدُ أن يجعلَ الأوقاتِ التي تنتظرها كلُّ خطيبة من خطيبها كي يُسمعها كلامَ الغزلِ والحبّ، كان يتعمّدُ أن نجلسَ في مقاهي بعينها في الحمرا أو الروشة.

قاطعتني "سارّة" :

- لعلّها أماكن أكثر رومانسية، أو أنّهما قادرتين على إلهامه بكلمات الحبّ والغرام .

لم أتمالك نفسي من الضّحك والسّخرية :

- كنتُ في كلِّ مرّةٍ أذهبُ معه لتلك الأماكن أتفاجأُ بوجود أصدقائه الذين يشاركوننا جلستنا وحديثنا إن جاز وقلنا : إنّه حديثٌ .
- ماذا تقصدين يا "جاسمين" ؟
- كان "أنطوني" يتباهى بين أصحابه بأنّي خطيبته، وكأنّه يُخرجُ لهم لسانه أنّه نجح في التغرير بحمقاء مثلي، جميلة وعصرية ورصيدها في خبرات العلاقات الإنسانية صفر.
- لم أفهمك ! لعلّه يتفاخرُ بأنّه يمتلكُ نجمةً سماويةً، أو هديةً قلّما يجيدُ بها الزّمان .
- ها أنتِ أمسكتِ طرفَ الخيطِ ... يمتلكني، لم أكن عنده سوى إكسسوارات يُكمّلُ بها حياته ، أتدرين يا صديقتي

أنّي من ضمن ما هالني أنّه كان دائمًا يبالغُ في إنجازاته ومواهبه ؟ وإذا تحدّثَ عن علاقاته في العمل، عادة ما يميلُ إلى الكذب ، وكلُّ ما يرويه هو مدى روعته فيه ، ومساهمته في إنجاز الأشياء غير المسبوقة، أي أنّه النّجم اللامع في جميع الأحوال وكافة الأمور، لم يكن ليقبل النّقد بأية صورة من الصّور .

- هذه شخصية نرجسية بامتياز يا "جاسمين" .
- نعم هذا ما أدركته لاحقًا، فهو من النّوع الذي يحتاجُ إلى شخصيةٍ تافهةٍ تتبعه وكأنها خُلقت لتكون يدين لا تتقنان سوى الانبطاح له والتّصفيق الحاد والمستمر دون توقف، وإغراقه بطوفانٍ عارمٍ من عباراتِ الثّناءِ والشّكرِ الدّائمِ، والشّعورِ بالثّناء والامتنان له حتى على أتفه الأمور، وذلك لإرضاء ذاته وغروره المتواصل .
- وهل تعلمتِ من التّجربة يا "جاسمين" ؟

ابتسمتُ ابتسامةً باهتةً يضمدها التعافي :

- ما دمتُ أحكي لكِ الآن، فاعلمي أنّي أكملتُ مراحل الشّفاء ، وتجاوزت نفقه المظلم .. تعلّمتُ الخلاصَ من العلاقات السّامة ؛ تلك التي كانت تنتشي بالتّقليلِ منّي أو إحداثِ ثقوبٍ من السّلبية والخيبات في سفينة إبحاري نحو التّفوق والنّجاح، أو حين تستميتُ كي ترفعَ أعلامَ الفشلِ الكئيبةِ على ساريةِ صروحِ نجاحاتي في الحياة.

كعادتها الهزلية :

- يا واش يا واش ، حكيم روحاني حضرتك !

لا أنكرُ أنّها تنجحُ في كلِّ مرةٍ في إخراجي من أحلك أوقات حزني بطريقة هزلية لا يجاريها فيها أحد ، قالت :

- دعيني أتفق معكِ يا "جاسمين" ، لا أخفيكِ أنّي تعلّمتُ منكِ الكثيرَ؛ تعلمتُ ألّا بطولة في مواجهةِ الكائناتِ السّامةِ، بل الحكمة في الابتعاد، فمجاملة الأفاعي جريمة .

نظرتُ إليها نظرةً حانية في محاولة لإنهاء هذه الحديث الذي يُقلّبُ عليّ أوجاعًا، والتي أتحاشى ذكرها، فأجبتها متسائلة :

- ما الذي يعجبك في شخصيتي يا "سارّة" رغم أنّي أقسو عليكِ كثيرًا ؟

ضحكت ضحكةً ماكرةً :

- سأخبرك يا قمر الليالي، أراكِ رمزًا للعطاءِ، وكأنّكِ تملكين كلَّ شيءٍ، تملكين الجمال وينقصك الحظُّ، تملكين الجاذبية وينقصك التّقديرُ الذي بكِ يليقُ، تملكين الذّكاءَ وكان ينقصك الجراءة .

ابتسمتُ قائلةً : كان ينقصني !

- نعم يا "جسامين" كانت تنقصك، لكنّك الآن تعلّمتِ من تجربتك المريرة، دعيني أكمل ولا تقاطعيني .

أومأتُ برأسي معتذرة.

- تعطين الأمانَ لمَن حولك رغم احتياجك الشّديد له، إحساسك قويٌّ ومرهفٌ إلى أبعد حدٍ ممكنٍ، ولكن للأسف تتجنبين البوح بمكنونات نفسك الأبية خشية أن تخسري مَن حولك، تتألمين من داخلك، ومظهرك مغاير في صورة

ابتسامة ساحرة ، امرأةٌ قويةٌ تسكنها طفلةٌ غاية في البراءة، أنتِ نموذجٌ صارخٌ للمرأة المتمردة الملتزمة ، تمنحين الاهتمام ، في حين أنّكِ في أشد الحاجة إليه ، تملكين جبروت لو سمحتِ بخروجه لاهتّز العالمُ طوعًا لكِ ، لكنّكِ لا تحبين أن تكوني قاسية.

قاطعتها :

- أنتِ تكذبين يا " سارّة ".

ابتسمت :

- هذه علامةٌ أخرى من علامات شخصيتك ، فأنتِ تستطيعين اكتشاف الكذب بسهولةٍ مطلقةٍ ، لكنك تفضلين الصمت..دعيني أخبرك أنّكِ تثقين في كلامي وتعلمين أنّي لا أكذب.
- لا أحبُ الكذبَ يا "سارّة" ، فهو في رأيي رأس كلِّ خطيئة.
- عطاؤك عطاء مَن لا يخشى الفقر، لا تنتمين لهذا العالم المرائيّ، تحتاجين فارس أحلام بمواصفات خاصة جدًا جدًا، يشبهك ويستكمل بك ضلعه المنقوص .
- من أين لكِ بهذا التحليل الذي يخفى عنّي الكثير منه ؟

ضحكت ضحكةَ الواثقِ بعلمه :

- هذه ببساطة يا "جاسمين" صفات أنثى الحوت .

نظرتُ إليها متعجبةً من قولها :

- هل تؤمنين بهذه الخرافات يا "سارّة" ؟

- يجبُ أن تفرّقي بين أمرين يا "جاسمين" ، قراءة الأبراج ، والاعتقاد في أنّها تنفعُ وتضرُّ، وبين القراءة في صفات الأبراج .
- وما الفرق يا فيلسوف عصرك ؟
- بدأتِ تتأثرين بي وتسخرين مني !
- مَن عاشر القومَ يا "سارّة" .
- القراءة في صفات الأبراج جائزة شرعًا، لأنّها ليست تدخلًا في قوانين اللهِ ولا خصائص النّاس، فهي تُعلِم الشّخص بعض الصفات التي وضعها الله في النّاس..بالمناسبة قبل أن أنسى، ما برج "أنطوني"؟
- العقرب ، ولكن لماذا ؟
- سأثبتُ لكِ صدق كلامي ، "أنطوني" من النّوع الذي لديه غيرة مرضية مميتة ، تتملكه الغيْرة الشّديدة من الآخرين في بعض الأحيان، أو الغيْرة على شركائه من الآخرين ، يعاني من مرض حبّ التملّك.

قاطعتها :

- هذه ليست بجديدة ، فقد أخبرتك بها .

تابعت قائلةً :

- أصحاب هذا البُرج يا "جاسمين" لا يقبلون مُشاركة الأشخاص في حياتهم مع أحد آخر أبداً ويحيطون حياتهم بهالة ساذجة من الكتمان والغموض، ولا يكشفون الكثير عن أنفسهم للآخرين؛ وذلك لتأمين الحماية لأنفُسهم ولحياتهم الخاصة، يعانون من مرض حب السّيطرة

ومتلازمة التّحكُّم في الآخرين، وأن يكونوا في موقع السُّلطة ، ولا يسمحوا لأحدٍ مهما كان في التّحكّم بهم أبداً.

لم أستطع إخفاء إعجابي الشّديد بتحليلها الدّقيق لشخصية "أنطوني" ، يبدو أنّي بدأت أصدّقُ نبوءاتك أيّتها العرافة البصيرة .

- ليكن ، ولكن عليك أن تعترفي بمهاراتي في تحليل الشّخصيات وقراءتهم من خلال صفات أبراجهم ولغة الجسد التي تفضحُ خباياهم..هل تأخّر اليومَ في الحضور؟
- مَن تقصدين؟
- العاشقُ الولهانُ يا "جاسمين" .
- لا داعي للتّلاعب بالكلمات يا "سارّة"، أفصحي عن قصدك .
- " علاء الدين " وحبيبته " ياسمين ".
- تقصدين "عنيزة "!

صمتت برهةً ، ثم قالت :

- متى تزورك صديقتك " هند "؟
- لماذا؟
- أليست دراستها في علم الأنثروبولوجيا، ولديها معلومات وافية عن الفلكلور والقصص الشّعبيّ والأساطير؟
- بلى، لكن لماذا؟
- ستعلمين في وقتها.

- عموماً موعدها غداً، رغم أنّي لا أحبُّ هذه الطّريقة في إدارة الحديث يا "سارّة" .
- لا تتعجلي يا أنثى الحوت الحالمة .

يومٌ في الحيرة

يقولون:الإنسانُ كائنٌ اجتماعيٌ بطبيعته، يحبُّ العيشَ في جماعاتٍ ومجتمعٍ وسط عاداتٍ وتقاليدَ وموروثٍ ثقافيّ، لم نسمع يومًا أن شخصًا مفردًا أقام حضارةً ما، ولكن جماعات من النّاس هي من تُشيّدُ الحضارات، ونتج عنها ثقافتها وعاداتها الخاصة بها.
سمعتُ أن أي شيءٍ تفعله أكثر من ثلاثِ مراتٍ يصبحُ عادةً، والعادة هي الشيء المألوف الذي يفعله الإنسانُ بدون تفكيرٍ ولا يشعرُ بضيق أو تعب.

هل ترددي المعتاد على تلك المكتبة، والانزواء في هذا الرّكن البعيد يُعتبر عادة؟ لا تغالط نفسك يا "علاء"، أنتَ في مرتبة أرقى من العاداتِ، أنتَ بكلِّ فخرٍ أدمنت المكان ، واعتدت ساكنيه ، اعتادت أصابعك ملمسَ الأوراق، وأدمنت رائحتها، صرتَ تميز بين الإصدارات الأحدث والأقدم من رائحة الكتب، أظنُّ لو انطفأت الكهرباء، وعمَّ الظّلامُ المكان، فلستُ في حاجةٍ إلى مَن يرشدني نحو ما أريده من الكتب التي تحتضنها تلك الأرفف..آهٍ لو تعلم تلك الأرفف كم أغارُ منها على كتبي ! ماذا في جعبتنا اليوم ؟ كتاب الأغاني للأصفهانيّ ، وددتُ لو خلت قاعة المطالعة من هاتين الفتاتين، لأنفرد بكتبي بعيدًا عن أعينهما، خاصة "سارّة" التي تسترقُ النّظرَ نحوي، ثمّ

تعاودُ تهامسها مع زميلتها "جاسمين" .. لعلهما يتحدثان عن حضوري شبه اليوميّ للمكتبة ! أو ربّما يتحدثان عن آخر الصّيحات في عالم المرأة ، فالنّساء جُبلن على حبِّ الزّينة، ومتابعة كلِّ ما هو جديد .. إنّ ما يدعو حقًا للشفقةِ عليهن أنّ ما ينبغي أن تبرع فيه المرأة قد سبقها الرّجلُ فيه ببونٍ شاسعٍ وتميزٍ فريدٍ، لا تستطيعُ امرأةٌ جحده وإنكاره، فأفضل مصممي الأزياء رجال، وأعظم الطّهاة على ظهر البسيطة أيضًا من الرّجال !

ها قد اكتملت ثالثة الأثافي .. صرن ثلاث فتيات، سوف يحتدم النقاشُ لا محالة ، إنّها مسألة وقت لا غير، أين أنتن من حبيبتي رمز الدّلال والجمال والرّقة والعذوبة ؟

ماذا عندك يا صاحب " لحظة تاريخ "؟ من أين ينبع نهر الزّمن العربي؟

" لا يعيد التّاريخ نفسه، فالموتى لا ينهضون من القبور، والأشياء تفقد قدسيتها منذ اللمسة الأولى، والمؤرخ رجل أحمق، يختبئ خلف حركة الزّمن "

يبدو أنكِ كنتِ على حق حبيبتي حينما سخرتِ منّي قائلةً: " أخبرتك أنّ معلوماتك مغلوطة وأنّك تنبهر بحماس البدايات، ورسائل الغزل ولا تُمعن النّظر في خلفية الأحداث ".

أين أنتِ غاليتي؟ تظهرين فجأة وتختفين فجأة وبدون أية مقدمات!

الحيرة مدينة العشق والغدر!

يومٌ في الحيرة خيرٌ من ترياق النّطاسين ، هكذا وقع الشّعراء في سحرها وجمالها " حلموا بها دون أملٍ، وماتوا فيها بلا ثمنٍ " ، كانت تلك النّداهة التي تغوي الرّجال، وتسلبهم إرادتهم قبل عقولهم بعد أن تكون قد أشعلت نيران شهوتهم ، وأعلّت من ثورات الفحولة والذّكورة ببناء الطّين الهشّ ، " ومنذ أن نادتهم وهم يسعون إليها دون أن يسأل أحدهم نفسه : مّن الذي بني ذلك الفخ بالغ الجمال؟ "

"النّعمان بن المنذر بن امرئ القيس" ... آهٍ يا "امرأ القيس"، يا من تنازعني حبيبتي "عنيزة" ، أيهما المارق العربيد ! أشعر شعراء العرب وحامل لوائهم إلى الجحيم ! ها هو حفيدك ابن ماء السّماء ذو الوجه الأبرش الدّميم والشعر المتوهج ، وأمّه "ماوية بنت جشم " تلك الحورية التي من فرط جملها سُمّيت بماء السّماء، كيف لهذه المهرة العربية الأصيلة تلد هذا البغل الدّميم ؟

مسيحيًا نسطوريًا، خشنًا فظًا لا صديق له، فيه من الهمجية والقسوة ما ارتجفت به أيدي المؤرخين وتطايرت بشؤمه رؤوس الشّعراء، "عبيد بن الأبرص" الشّاعر في يوم بؤسه ! والقائمة تطول .

وماذا عن نديمَيه؟ هذين الوغدين اللذين وُجِد ا ليبررا أداة القتل، ككرة النّار التي تحرقُ الدّنيا بأسرها دون وخزة ضمير أو نتفة من ألم .. ألا لعنة الله على حاشية الباطل والرّياء في كل زمانٍ ومكانٍ ، قليل من النفاق لا يضر !

وماذا عن طوفانه الذي ابتلع كلَّ خيرٍ وأملٍ وحلمٍ وليدٍ! لا مانع من تبرير عجز ابن ماء السّماء، حتى عجزه في معركة الفراش من امرأته " المتجردة ".. آهٍ أيتها المرأة المثالية التي طاحت لفتنتك وسحرك رقاب الرّجال، وكأنّكِ النّور وأكسير الحياة الذي يجتذبُ الحشرات العاشقة لحتفٍ لا شك فيه.

كم أكره ثرثرةَ النّساء .. وهذا الثّلاثيّ المرح الذي يشاركني قاعة المطالعة بمكتبة مصر العامة ، حيثُ يضمّها النّهر العظيم، الثّنائيّ "سارّة" و"جاسمين" ، وثالثة الأثافي التي لا أعلمُ من أين جاد بها الحظُّ التّعيس؟

ماذا دهاك يا "علاء" لتترك الحيرة مدينة السّحر والغدر والشّهوة والنّشوى وشواهد القبور لتنشغل بحال هؤلاء النّسوة ؟ هل هناك غير الشّاعر "عبيد بن الأبرص" راح ضحية " النّعمان " وغدراته ؟

ها هم الخدم يحملون جثمان الشاعر" المُنَخَّل اليشكُريّ " ليلطخا بدمائه نصب النديمين .

يا لها من متناقضاتٍ لا يقبلها عقلٌ ولا يأنس بها قلبٌ رحيمٌ.. اكتشف "النعمان" خيانة المتجردة، فتجاوز خيانتها، وغفر لها ولم يغفر لـ "مُنَخَّلٍ "!

فاجأني سحر الصّوت وقسوة العبارة، هذا الصّوت أعرفه حد الإيمان واليقين، "عنيزتي " ، تأخرتِ عنّي حبيبتي ! بحزمها العذبُ الذي يذيبُ قسوةَ جبالِ سيناء وغلظة

صخور مكة وتنبت على جنباته أشجار الزيتون بأرضِ فلسطينَ قالت:

- قصةٌ أخرى من قصص الخيانة ! ألا تجد سواها أيها المغامر الذي تحاذيه الخبرة والفطنة كشريطي قطارٍ سريعٍ لا يتوقفُ إلا في محطته الأخيرة ، فلا تلتقطُ عجلاته أنفاسهما المتقطعة ولا القضيبان يلتقيان !

نظرتُ إليها نظرة الملتاع من قسوة البعاد وعتمة ما بعد الوداع:

- لا تتعجلي الحكم عليها حبيبتي.

بريبةٍ لا تخطئها عينٌ :

- هل أعجبتك "هند بنت عامر"؟
- تقصدين " المتجردة " ؟ تلك الحورية معتدلة القدّ ، نقيةُ اللونِ والثّغر، القمراءُ، البيضاءُ، الكحلاءُ، أسيلةُ الخدين، شهيةُ المقبل، جذلةُ الشعر، عريضةُ الصّدرِ، كاعبُ الثّدي، ضامرةُ البطن، لفّاءُ الفخذين، لم تغد في بؤسٍ....

قاطعتي بصوت غلفه الحنقُ وغيرةُ النساء :

- وماذا أيضا أيها النّخاس ؟ ذكرتني بقول "الأعشى ":

غراءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضها

تمشي الهوينا كما يمشي الوَجي الوَحِلُ .

ألا ترى أنّك قللتَ من شأني كثيرًا حين محوتَ كلَّ جميلٍ في روحي وصفاتي متعلقًا فقط بما يُرضِي شبقَ أشباه الرّجال !

لم أجد نفسي أمام ثورتها التي فاقت بركان فيزوف جحيمًا إلّا أن أبدي اعتذاري، وأنثر معالم ندمي على عتبات قلبها.. خانني اللفظ حبيبتي وغدرت بي الكلمات .

أمسكت بيدي وغاصت بعينيها العميقتين في عيني العاشقة لجمالها ودلالها ورقتها :

- دعني أسألك أيها المبتدئ بدرب المحبين .. لماذا قتل "النّعمانُ" "مُنَخَّلًا" ؟ ولماذا سعى لحصد هامة "النّابغة الذبيانيّ" ؟ وماذا تعرفُ عن "رقاش" صديقة "هند بنت عامر"؟

ببلاهة الصّبيان أجبتها :

- لا أدري، لا أدري سوى قسوة "النّعمان" حين دخل على "هند" وعشيقها "مُنَخَّل" .

قبضت علي يدي:

- أكمل .
- عندما ملّ "النّعمانُ" من مطاردة "النّابغة" عاد لقصره دون توقعٍ ، فوجد "هند" متجردةً هي وعشيقها، وكانت ساقاهما مقيدتين معًا بقيدٍ واحدٍ .
- وهل تراه يا "علاء" قيدَ عشقٍ أم قيدَ خيانةٍ وغدرٍ؟ لا تجبني الآن وأَظِهر ما في جعبتك ممتلئةِ الثّقوبِ، والتي لا تقوى على حمل الحقيقةَ كاملةً.

قرّبتُ يدها من فمي ولثمتها ، قبلةَ عاشقٍ أرهقه الحبُّ ، ونالت منه الظّنونُ ، نعم ، سأفرغُ جعبتي أمامك حيث نَصبتِ أنتِ سوق عكاظك الصّارم الذي ينقدُ نقدَ صيارفة اليهود .. جنّ

جنون "النّعمان" ، وأمر بتخليص العاشقين بقطع ساق "مُنَخَّل"، مع ترك السّاق معلقةً في القيد.

- ثم؟
- تلطّخت "المتجردةُ"بالدّماءِ، ولم يسمحوا لها بالاغتسال.. ظلّت السّاقُ متعلقةً بها حتى دبّ بها العفنُ، وخرجت منها الدّيدانُ.

بسخريتها المعتادة :

- يا حرام! كم أنتَ قاسٍ يا حفيدَ "امرئ القيس"! وماذا بعد ؟
- انهارت المتجردة تمامًا، ولمّا سمح لها بفك القيد أخيرًا لحقت بأحد الأديرة وترّهبت فيه ، ولم تقدر على الخروج للنّور مرةً أخرى ولا مجابهة العالم المحيط .

بصوتِ بعضِ ضباط أمن الزّبانية في مدينة يوتوبيا "أحمد خالد توفيق" من فئة مرضى النّفوس حين يُحكمون الشَرك على المتهمين الذين أوقعهم حظهم العاثر بأيدي الجلادين :

- هل لديك أقوال أخرى؟

عاودت تقبيل يديها، واضعها على شفتيّ :

- القسوة لا تليقُ بكِ يا ستَّ النّساء !

ضحكت وهي تحاولُ إخفاء هذا الصّوت الذي لامس أعماقها ، كي تُبقى على صلابتها الهشة ، فقلبي يرى دواخلها ورقتها الطّاغية رؤيةَ عينٍ، ويحفظها عن ظهرِ عشقٍ ، قالت :

- لن تفلت منّي أيها الوغد المبتدئ، هل ظلمها "ابن ماء السّماء" ؟

بكلِ ثقةٍ أجبتها :

- نعم .
- دعني أكمل لك ما تساقط من جعبتك المهترئة أيها الأغر.. كان "ابن المنذر" يتغّيبُ عنها كثيرًا لشهوةِ الصّيد، صيد الغزلان وصيد رقابِ المخالفين لحكمه الجائر، فضلًا عن خسارته المتكررة في معركة الفراش، وعندما آيست "هند" منه وكرهت وجهه الدّميم وقصره الفاضح ملأت فراغها بصديقتها "رقاش".

قاطعتها مستغربًا :

- وكيف تملأ امرأةٌ ما عجز عنه "النعمان"؟
- هذا هو بيت القصيد، احتلت "رقاش" فراغ فراش "ابن ماء السماء ".

لم أتحمّل هول المفاجأة كعادتي في تلقي الصّدمات تلو أخواتها:

- هل تقصدين أنّها كانت ....
- نعم أيّها الأغر، سرعان ما اكتشفا مكامن المتعة في جسدهما، فكانت "هند" أول امرأة عربية عُرف عنها ذلك الانحراف ، ثّم ...

بعينٍ مُلِحّةٍ وسؤالٍ حَيّره ما تخفيه عميقة العينين :

ثمّ ماذا ؟ ماتت "رقاش" فجأةً وبدون أية مقدمات، مخلفةً وراءها جوعًا لا يُشبع، ورغبةً حائرةً لا تنطفئ، حتى رأت

الشاعرين " النابغة" و"مُنَخَّلًا" في مجلس "النّعمان".. تعلّق بها الشاعران سريعًا، وصار كلٌ منهما يتمنى أن يرافقها في سريرها، ولأنّ لا أحدَ يتعلمُ الدّرسَ منذ قتل "قابيل" أخاه من أجل أنثى، دبّت الغيْرة بين الصديقين، وصارا يتباريان في إظهار أفضل ما لديهما لينالا رضاها .

قاطعتها :

- لكن ما أعلمه أنّها أحبت " مُنَخَّلًا ".
- لا تتعجل حبيبي وقرة عيني كعادتك ، في يومٍ من الأيام ساق القدرُ "النّابغة" إلى بستان القصر، فصُعق حين شاهد "هند" وهي تستحمُ ، وقد تجردت تمامًا من كامل ملابسها، لم يتحمل النابغةُ نورَ جمالها الصّارخ الذي غرس سهمه في قلبه بدون أملٍ في عودةٍ أو شفاءٍ.. وفي ليلةٍ ظلماءَ لعبت الخمرُ برأس "النّعمان" هو ونديماه وطلب منهما أن يتبارا في معاركهما الشّعرية المعتادة، فخان الحذرُ لسانَ "النّابغة"، واندفع يقرضُ الشّعرَ واصفًا فيه أدقَ تفاصيل جسد "المتجردة" كما رأه.

قاطعتها :

- وطبعًا جُنّ جنون "النّعمان" .
- نعم، وقال مقولته التي سطرت نهاية الشاعرين لاحقًا : لقد وصف جسدَها وصفَ مَن عاين لا وصف مَن تخّيل ..هل ما زلتَ تبررُ لها أم أكمل لك تلك الملهاة ؟
- لا ... شعرت بغثيانٍ وبرودةٍ في جسدي ،ورنينٍ في أذني ، ورغبةٍ مُلّحَةٍ في مغادرة الحيرة .

نظرت لي نظرةً حانيةً :

- هل ما زلت تدافع عنها ؟

أجبتها بصرامةٍ ، وقد ارتفعت نبرة صوتي :

- الخيانةُ خيانةٌ ، ولا مبررَ لها .

ابتسمت ويدها تغادر مواضع يدي، مدينة الحيرة كالدّنيا ، ملعونة ، ملعونٌ كلُّ ما فيها ، على رغم جمالها وسحرها، فقد بُنيت على لبنات الخيانة وأحجار الغدر بداية من غدر "النّعمان" بـ "سِنِمَّار" المعماريّ البيزنطيّ الذي شيد له قصر الخورنق الذي أراده "النّعمان" أجمل قصرٍ في الإمبراطورية الساسانية، ثم بدعته التي ابتدعها بعدما غدر بنديمَيه، وجعل في العام يومين؛ يوم نعيم ويوم بؤس..مَن دخل الحيرة في يوم نعيمه فاضت عليه الدّنيا بخيرها، ومَن دخلها في يوم بؤسه فقدَ حياته، ولطّخ النعمانُ بدمه قبرَ النديمين المغدور بهما .

قاطعتها وقد ارتفعت دقت قلبي :

- حتى الشاعرين خانا ميثاق صداقتهما ! صدقتِ أيّتها النّقية الطّاهرة ، الخيانة لا تبرير لها، تظلّ الخيانة خيانة مهما كانت الأسباب ، حاولتُ مقاومَة الطّنين الذي جعلني على وشك الانهيار، ولم أشعر إلّا بيدٍ تجفّفُ عرقي .

- هل أنت بخيرٍ يا عزيزي؟

رفعتُ عيني، فإذا بيد "جاسمين" تجفّفُ عرقي .. نظرتُ إليها نظرةَ امتنانٍ وشكرٍ بالغٍ دون أن تسعفني الكلمات ، وإذا بالفتيات الثلاثة من حولي ، تمالكتُ نفسي، واستجمعت قواي،

ولملمتُ أوراقي وذلك الدّفتر الذي لا أدري كيف وصل إلى يد " سارّة " ؟ لكنّي لم أجد مفرًا من شكرها على صنيعها، معتذرًا لهن كالعادة ، أسابقُ وقعَ أقدامي لمغادرة المكتبة.

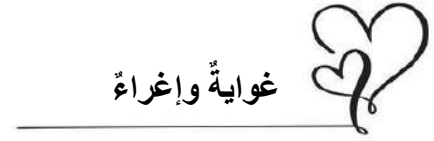

غوايةٌ وإغراءٌ

ها أنا اليومَ أضطرُ إلى النّزولِ مبكرًا كي أمّرَ على صديقتي "سارّة" لتُشغل المقعد المجاور لي كعادتها في كلِّ أمور حياتي أو تكادُ..أكره ازدحام القاهرة وقت الذّروة، كأنّها امرأةٌ غدر بها الجمال إلّا من صورةٍ مُعلقةٍ على الحائط ، تُذكّرها بما كانت عليه قبل عشرين سنة ، صورة ممزوجة بحديثٍ رتيبٍ لا تملُّ عنه صاحبته عن صولاتٍ وجولاتٍ وقلوبٍ تكسّرت على أعتاب بابها ، دون أدنى التفاتة منها ، ثم ينتهي حديث تلك العجوز بتنهيدةٍ معتمةٍ ببرودةِ شتاء سيبيريا، أو انكسار " الصغير " آخر ملوك الأندلس، وهو يودّعُ مُلك الآباء والأجداد مستسلمًا لـ"فرديناند وإيزابيلا".. لم تنفعه دموعه ولم ترحمه من سوط "عائشة" أمّه حين جلدته بكلماتٍ أحدَّ من السيف وأشدَّ سواداً من رائحة الموت : " ابك كالنّساء ملكًا لم تدافع عنه كالرّجال " .

من سخرية الدّنيا أنّ كلَّ المدن تفتخرُ بحاضرها، ومدينة المعز لدين الله تفتخرُ بماضيها ! كيف تحولّت تلك المدينة السّاحرة قلبُ العالم النّابض إلى هذا المسخ الباهت وكأنّها تعاندُ نفسها ؟..كم أشتاقُ إليكِ يا جدتي، وتلك اليدُ الحانية التي كانت تمسحُ عنّي عرق الصّيف السّخيف وأنا في حجرها أخرج لساني للدّنيا حيثُ امتلكتُ سعةَ العالم في حضن جدتي.

- مَن المحظوظُ الذي أخذك إلى عالمه الموازي يا زهرة الياسمين ؟

أفقتُ من هذا الحلم الجميل على أنامل "سارّة" وهي تعبثُ بذقني :

- منذ متى وصلتِ أيتها المشاغبة؟
- يا تُرى مَن حبيب القلب الذي أخذك على طرف بساط الرّياح ، حيث عوالم "علاء الدين" الساحرة وعفريته غريب الأطوار؟
- وكأنّ الله عوّض قِصر قامتك يا "سارّة" بطول لسانك.
- انتبهي يا "جاسمين." صاحت فيّ "سارّة" حيثُ كنتُ على وشك الاصطدام بطفلةٍ دون العاشرةِ بملابسها الممزقةِ، والتي تُظهرُ أكثر مما تستر هذين المسمارين الذين يرتكز عليهما جسد الطّفلة النّحيل..اندفعت الطّفلة نحو السّيارة لتبيع لنا عقدًا من عقود الياسمين التي تدورُ بها في شوارع القاهرة وحرها الخانق .

وهي تحشر يدها التي تشبه أيدي عرائس الماريونيت داخل النّافذة المجاورة لـ"سارّة" :

- عقدُ ياسمين يا هانم ، الله يخليك .

سارعت "سارّة" لإغلاق زجاج بابها :

- يحنن يا شاطرة .

اندفعت البنت نحو نافذتي بعيونِ التّوسل ولعنة الحاجة.. ابتسمت لها :

- عقدين من فضلك ، شكرًا لكِ .

خطفت الطفلة الجنيهات وابتلعها ضجيج السيارات وحر القاهرة وما يحمله مستقبله من سرابٍ قاتمٍ.

- لا تفسير لتصرفك يا "جاسمين".. هؤلاء المتسولون لا يغرك مظهرهم ، فهذه الفتاةُ تعملُ ضمن منظومة متشعبة، حيثُ عالم التّسول من خلال استجداء دموع الحمقى أمثالك .

نظرت إليها بابتسامة باردة :

- لا أملَ في لسانك السليط..هذه مجرد طفلة تعيسة، دعينا نساعدها اليوم في وصول حسابها البنكيّ إلي عشرةَ ملايين من الجنيهات بجنيهاتي التي استولت عليها تلك المحتالة.

نظرت "سارّة" نحوي، وهي تضع عقد الياسمين حول رقبتها:

- ما شاء الله على رقتك معها ؛ " من فضلك وشكرًا لكِ "..الرحمة يا ربّ !

أدرتُ وجهها بحركةٍ سريعةٍ بيدي نحو السيارة التي تمرُّ أمامنا:

- ما المكتوب أمامك يا حلوتي؟
- " من لا يشكر النّاس لا يشكر الله "..ابتسمت "سارّة" ابتسامتها المعهودة حين يعجبها تصرفٌ ما مِن تصرفاتي، رغم أنّها على غير قناعة تامّة به.. ركزي في طريقك يا عقد الياسمين .

وصلنا أخيرًا لعملنا، وعلى غير العادة سبقنا الزائرُ المقيمُ إلى ركنه الهادئ، وكرسيه يتوحّدُ معه توحده مع عالمه الموازي، لم يقطع صمت المكان سوى وقع أقدام "هند" وحذائها الذي يضلّلُ الناظرين حين يمنحها عشر سنتيمترات نحو السّماء محلقةً بعيدًا عن الأرض.

- مساء الخير أيّتها الحسناوات الفاتنات.
- مساء الخير آنسة "هند"، حدثتني عنك كثيرًا "جاسمين"، وعن تخصصك في علوم الأنثروبولوجيا والفلكلور الشعبي .
- كعادتك متسرعة يا "سارّة" ، أهلا بكِ يا "هند"، هذه "سارّة " صديقتي التي حدثتك عنها.

ابتسمت "هند" ابتسامةً غامضةً امتصت حماس "سارّة"، وكأنّه ثقبٌ أسود ينهي نزوة الكواكب التي غرّها سعة الكون الرحيب.

- مَن هذا الذي ينزوي بعيدًا عن مكتبكما ؟ هل هو زميلٌ لكما بالمكتبة ؟

على مضض :

- بل هذا مَن نحتاجُ منكِ تفسير الغموض الذي يتشرنق داخله.

نظرت إليها "هند" وقد تحولت رأسها إلى علامة تعجب متحركة :

- ماذا تقصدين يا "سارّة" ؟

- هل هناك في الموروث الشّعبيّ ما يسمى بالجنّية الفاتنة التي تظهر بجوار البحيرات أو المستنقعات، والتي تطلبُ مساعدة الرّجال المارّة، ومَن يُلبِّ نداءها تغويه و يلقَ حتفه ؟

ردت "هند" وهي تطيلُ النّظرَ لـ"علاء" وترقبُ اندماجه في القراءة والملاحظات التي يدوّنها في دفتره :

- الجنّية في الموروث الشّعبيّ امرأة تظهر بأبهى حلّة ، وتغوي الرّجال بجمالها ، قبل أن تدفع بهم إلى الهلاك ، ودعيني أخبرك أنّ هذا القصص الشّعبيّ يُعد تراثاً عالمياً ولا يقتصرُ على القصص الشّعبية العربية.
- تراثٌ عالميٌّ! .. على حد علمي أنّها هي النّداهة التي تحدّث عنها "يوسف إدريس" في روايته الشّهيرة .. نظرت "سارّة" إلى "جاسمين" وكأنّها لدغها عقربٌ فحركها من مقعدها ... لقد استعارها صاحبُنا الأسبوع الماضي !

نظرتُ إليها نظرة طمأنينة... مجرد صدفة يا "سارّة " ، لا تقاطعي" هند" .

- الأمر لا يقتصر على النّداهة التي تظهرُ في حقول الفلاحين ليلًا أو قرب التّرع أو نهر النّيل يا "سارّة"، ففي المناطق الصّحراوية والبدوية يُشارُ إلى صفير الرّياح على أنّه صوتها، وقرب شواطئ البحار صوتها نذيرُ شؤم ، بل وينسب إليها حوادث الخطف والقتل والاختفاء والجنون .

بخفتها المعهودة قالت "سارّة ":

- وهل اقتصرت مغامرات النّداهة على مصر، أم احترفت بالدّول المجاورة؟

ردّت عليها "هند" :

- في بلاد المغرب يسمّونها "عيشة قنديشة"، وفي الخليج تسمى "أمّ الدويس" والتي تظهرُ على شكل امرأةٍ فاتنةِ الجمال، عادةً في الليل، تغري الرّجال وتخطفُ الأطفال ، وغوايتها للرّجال كما في بعض القصص تتطورُ إلى علاقات جنسية.
- علاقات جنسية ؟ وكأنّ الكلمة استثارت فضول " سارّة " .. تقصدين أنّ المرأة في الموروث الشّعبيّ رمز للغواية والفتنة؟
- الموضوع قديم يا "سارّة" ، فقد ورد في أسفار الخلق والتكوين قصة توحد المرأة مع الحية والشّيطان، وإدانة حواء بتهمة إخراج آدم من الجنة..تمسك بهاتفها، وتبحث عن نص الآية، ها قد وجدتها، ورد في الإصحاح الثّالث من سفر التكوين : " فرأت المرأة أنّ الشّجرة جيّدةٌ للأكل، وأنّها بهجةٌ للعيون، وأنّ الشّجرة شهيّةٌ للنّظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل".

سرحتُ بخاطري في سلطوية المجتمع الذكوريّ الذي يستغلُ النّصوص في تطويع المرأة لتفسيراته وهواه :

- للأسف يُقال بأن المرأة معاقبة من الله بـآلام الحيض والولادة وبالتالي استخدمت هذه الضّرورة الجسدية كدليلٍ ومبررٍ لإخضاعها واتهامها بالخطيئة.

ابتسمت "سارّة" محاولةً التّخفيف من الحالة التي ألمّت بي فجأة :

- القصة في صيغتها الإسلامية مختلفة يا "جاسمين"، فقد حمّلت آدم وحواء مسؤوليةً مشتركةً، والمنظور الإسلامي لا يتبنّى فكرة "الخطيئة الأولى"، ولا يميّزُ بين آدم وحواء .. تتناولُ نسخةً من القرآن الكريم وتبحث فيه ، الآيات من سورة البقرة، يقول الله تعالى : " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ".

قاطعتها "هند" :

- دعيني أخبرك أنّ القصص الشّعبيّ لم يتشرب القصة الإسلامية ، بل مال بدلاً من ذلك إلى السّرد التوراتيّ الذي يُحمّل حواء ثقل الخطيئة ، والذي كان مؤثراً في الثّقافات العربية وغير العربية، حيثُ اعتمدته قصص مختلفة عن شراكة الشّيطان والمرأة في إغواء الرّجل.

أمسكتُ بيد "سارّة" كي تتوقف عن متابعتها لـ"علاء" والتي تسببت في تشتيت ذهن "هند" .

- ألا تريان أنّ نظرة المجتمع للجنس قد يكون أحد الأسباب، حيث إن الجنس فخر للرجل ووصمة عار تلحق بالمرأة، وهو ما ساعد في انتشار أية خرافة أو أسطورة لها علاقة بإغواء المرأة للرّجل !

"هند" وهي تتأملُ عقدَ الياسمين الذي وضعته "سارّة" حول عنقها، كم يبدو عقد الياسمين جميلًا حول رقبتك يا "جاسمين" !.. أظنُّ أنّ التصاق فكرة الإغواء كقرينٍ للمرأة في هيئة أسطورة الجنّية، ما هو إلّا انعكاس لما هو سائدٌ من قيم وتصورات ثقافية واجتماعية داخل المجتمع الذّكوري.

تبادلتُ النّظرات أنا و"سارّة"، ولكنّي اكتفيتُ بشكرها على ثنائها الذي في غير وقته :

- وما الحل في رأيك؟
- أظنُّ أنّ الأفكار والأساطير النمطية تختفي تدريجياً إذا حلّ تغيير في المجتمع في مجال المساواة، والانفتاح على أنساق ثقافية أخرى ... أمسكت "هند" بكوب الماء لتبلل ريقها الذي أرهقه حوارنا السّاخن، ثم أخذت نفسًا عميقًا قائلةً :
- لا بدّ من إعادة كتابة الحكايات الشّعبية من وجهة نظر المرأة .

قاطعتها:

- هناك فعلًا محاولات أدبية وإصدارات عدة من بينها: " قالت الرّاويات...ما لم تقله شهرزاد، وحكايات حورية ، وقالت الرّاوية، ومصباح علاء الدين ".

اندفعت فجأة "سارّة" من مكانها، في رأيي أن الحلّ أن نترك مصباح "علاء الدين" وننقذ "علاء" من حالة الإغماء التي ألمّت به.

نظرنا إليه وهو يهذي: الخيانة لا تبرير لها، تظلُّ الخيانة خيانة مهما كانت الأسباب.

سارعنا حوله خوفًا أن تتحول الحالة إلى نوبةٍ صرعيةٍ تستدعي ما يُقدّم للمرضى في تلك الحالات .

وهي تقفُ بحذر على بعد خطوات من "علاء" قالت "هند":

- أظنُّ أنّه يعاني من الهلاوس .

وهي تتصفّحُ دفتره :

- ما شاء الله ! الأمرُ يزداد تعقيدًا يا "جاسمين" .

نظرتُ إليها معاتبةً :

- دعي ما بيدك وناوليني علبة المناديل الورقية كي نجفّفَ عرقه.
- مناديل ورقية ! نجفف له عرقه ! قالتها "هند " وهي تتراجع خطوة إضافية .

مدّ يده نحو "سارّة" ، وأخذ منها دفتره ولملم أوراقه سريعًا ونظر لي نظرة امتنان، وانصرف من المكتبة .

عدنا إلى مقاعدنا، وقد ألقى علينا الصّمت بشباكه، يحاولُ كلٌ منا وضع تفسيرٍ لما حدث منذ دقائق ، نظرت "سارّة" نحو "هند" نظرةً عميقةً ثم سألتها :

- أتظنين أنّ النّداهة سيطرت عليه ؟

وهي تستعدُ للمغادرة :

- أخبرتك يا "سارّة" ، أظنُّ أنّه يعاني من هلاوس سمعية وبصرية ، فهو يخّيلُ إليه أنّه يسمعُ أصواتًا لا وجود لها، وكأنّه يرى أمورًا وكائناتٍ غير موجودة في الحقيقة.

وهي تخلعُ عقد الياسمين من عنقها وتضعه حول رقبة "هند":

- ولماذا لا نفسّرُ الأمرَ أنّ النّداهة التي تسيّطرُ عليه تستقرُّ داخله، في عقله وتتحكّمُ في أفعاله وتصرفاته ؟

نظرتُ إليها وكأنّها وضعت يدها على خيطٍ خفيٍ يقودنا لتفسير هذا اللغز :

- تفسيرٌ حصريٌّ يا "سارّة".

قبل أن تغادرنا قامت "هند" بمصافحة "سارّة " مصافحةً باردةً ، ثم أقبلت نحوي واحتضنتني بنظرةٍ لا تفسير لها :

- هل تشتاقين لبيروت؟
- متى سفرك ؟ ومتى تعودين ؟
- سأغادرُ غدًا ، ثمّ ألقاك بعد أسبوعين من الآن .

ودّعتها ، وشريط ذكريات بيروت والحمرا ، يطلُّ بعتمته ليضفي مزيدًا من خيبة الأمل والحسرة على سنواتٍ ضاعت في الرحلة الخاطئة .

شتاءُ ريتا الطويلُ

ها أنا وحيدًا بمدرستي المتطرفة ؛ مدرسة البين بين؛ على حافة المدنية الخانقة وحقول القمح وأشجار النّخيل التي لا زالت تعاندُ تغوّل الأشجار الإسمنتية...جلستُ منفردًا في غرفة المعلمين، في أقصى مكانٍ يضمنُ لي مفارقةَ المتطفلين، إلّا مِن بضع مقاعد تقاومُ عواملَ الزّمنِ ، وطاولة قديمة تتوسطُ المكان، كم أمقتُ مَن يدسّون أنوفهم التي تناطحُ برجَ القاهرة ، دون أن يشعروا بثقلهم ، ودون أن يروا أنّهم يُقحِمون أنفسَهم في حيزٍ لا يتسعُ لهم، ولا يتقبلهم ! كم أشفقُ عليهم ! متى يدركون أنّ تطفلهم ليس سوى اعتداءٍ وانتهاكٍ صارخٍ لحرّيات الآخرين .. يا لوقاحتهم ! كم يستحقون الشّفقة !

يباغتني صديقي "أسامة" بفضوله الذي أحبّه، فهو الاستثناءُ الوحيدُ المشرقُ الذي يخفّفُ عنّي وطأةَ الوحدة والهروبَ من رتابة الأحداث اليومية بمدرستي مترامية الأطراف التي تسكنُ الحافة :

- لا أدري ما الذي يعجبك في أوراق مبعثرة وحجرة يستحي أن يزورها النّور؟

نظرتُ إليه وأنا أشيحُ عن عيني إرهاق الأمس وآثار الجدل المعتاد مع أمّي :

- ألا ترى أنّ هذه الفوضى أكثر رقة ولطفًا ممّن ينتبه لأدقّ تفاصيلنا، يعبثُ بخصوصيتنا ؟

نظر إليّ ساخرًا وهو يعبثُ بأوراقي :

ولماذا لا تراها من باب النّصيحة وتقديم المشورة ؟.. يبدو أنكَ أضفت إبداعاتٍ جديدةً شاعرنا الحالم .

- دع عنك تطفلك يا "أسامة "، وأخبرني لماذا اتصلت بكَ أمّي أمس في ساعة متأخرة ؟

بحذرٍ تعودتُ عليه منه وسخريته الضاحكة:

- تلومُ على تطفّل الآخرين، وأنتَ تتجسس على أمذك!
- لا والله يا "أسامة" ، فقد سمعتُ اسمك عرضًا ، فليس من طبعي تلك العادة اللعينة .
- كالعادة يا "علاء"، تسألني عن عروس لحضرتك ، أتعلم يا صديقي لولا أني أعرفك جيدا !..بمجرد أن تمسك بقلمك أو تتصفح ما بيدك من كتابٍ تستغرقُ فيه هاربًا من إطار عالمنا لعوالك الخفية !

حبيبتي قد طال ليلُ الانتظار، قد سئمتُ الانتظار، نبعَ أحلامي ومهجتي .. أين أنتِ وسْط آلافٍ من وجوهٍ تحتضرُ ونفوسٍ قد تعّرت من ثيابِ الطّهر أملاً في عُلبةٍ من ألوانِ الكآبةِ والخلاعةِ والمجون ؟ حبيبتي، أنتِ سبيلي ودربي المضيء ، أفلا تَحنّي على نفسي الحزينةِ ، وتحميني من قسوةِ المشاعرِ الزّائفةِ وتَلّون الشقاءِ ؟ ما زال قلبي ينتظرُ، يبكي ويدعو بالحنين، حبيبتي ، ها هم وكّلوا أنفسَهم عن ذاتي وإرادتي وألقوا ببطاقة التّرشيح على إحدى بنات حواء الفاتنات، يا تُرى ماذا تحملُ لنا تلك البطاقة من مزايا أو صفاتٍ ؟

امرأةٌ جميلةٌ ذاتُ فتنةٍ وبهاءٍ يكسوها ثوبٌ من رزانةٍ وحياء، تحملُ صفاتِ امرأةٍ عصريةٍ تلتقطُ عصا الطّاعة وحبَّ الآخرة بكلتا يديها؛ غرسٌ طاهرٌ يبغي النّماء؛ اللعنة ! أين شرطُ الإجازة ؟ أين ضماناتُ التّفاني وإحساسُ الرّواء ؟ أنىّ لهم تلك الحرّيةُ في بيعِ قلبي ووأدِ ينبوعِ الصفاء؟ "عنيزتي "، عذراً إليكِ إن تهاونتُ في حقّ هوانا المُتوّجِ في أحشائنا.

أين اختفى أسامة ؟..كعادته يأتي بلا إرهاصاتٍ ويختفى بلا مقدماتٍ، يشبه حبيبتي "عنيزة "ّ! ماذا معنا اليوم ؟ شتاء "ريتا " الطّويل ... " إنّي أُحبُّكِ رغم أنفِ قبيلتي ومدينتي وسلاسلِ العاداتِ، لكنّني أخشى إذا بعتُ الجميعَ تبيعيني وأعودُ بالخيبات" شاعرُ الأرض المحتلة، "محمود درويش" و"ريتا " اليهودية.. جمعهما الغرامُ وفرقتهما بندقية ! ، يبدو أنّنا سنقعُ لا محالة بين سندان العاطفة ومطرقة "عنيزة" حبيبتي ستِّ النّساء.

وهي تتسربُ إلى غرفتي كضوء الصّباح الذي يبدّدُ عتمة الليل البهيم :

- هل تظنُّ أنّ محاولة مغازلتي ستغزلُ لك سترة نجاةٍ ، وتحمي سرديتك من بندقية قنص غدّرات العاشقين ؟

بفرحتي الطّفولية وعيوني الفضاحة :

- تأخرتِ كعادتك حبيبتي !

اقتربت منّي، وجلست حيث تبدّدت المسافات واختلطت الأنفاس وتوحدت دقات القلوب :

- اشتّم رائحة خيانة جديدة يا "علاء ".

تأمّلتُ جمال عينيها التي طالما أنهت الكثيرَ من معاركنا الجدلية بانتصارٍ ساحقٍ لعميقة العينين، وهزيمة جديدة بمذاق الوجد والانتصار :

- أظنُّ أنّ الانتصار حليفي هذه المرّة لا محالة.

ابتسمت وهي تتأمّلُ ما كتبته اليوم في دفتري :

- هل تظّنه أحبها؟

وأنا أتحاشى النّظرّ إلى عينيها كي لا أفقد بعضًا من جنودي مبكرًا على رقعة الأحجار :

- الحبُّ يا غاليتي لا يحتاجُ إلى استئذانٍ ، لا يمكنُ لكِ امتلاك سلطة ترويضه، لتجبريه أنّ يحبَّ أو يكره شخصًا بعينه ، لا يخضعُ للمنطق، فقط تشعرين بمشاعر دافئة تتجه صوب قلبك مباشرةً فتحتلُّ كلَّ أركانه.

أمسكت بيدي :

- ارفع رأسك أيّها المغامر، فليس من اللياقة مع أنثاك أن تتحاشى النّظر إليها.. لكن أليس ولاؤها لبني جلدتها من اليهود كان كفيلًا أن ينقض غزله أنكاثًا من بعد قوةٍ ؟

ها أحد جنودي يسقطُ خارجَ رقعةِ الشّطرنج :

- ألا تظنين أنّ الحبَّ كفيلٌ بتجاوز تلك الحواجز التي من صنع بني الإنسان ؟

بسخريةٍ لاذعةٍ :

- بنو الإنسان ! وهل يعرفُ مَن شتّت شعبًا واغتصب أرضَه وأحلامَه ومستقبلَه ، هل تظنّه يمتكُ شيئًا من معاني

الإنسانية في معجمه الدّمويّ؟ الحبُّ أيّها الحالمُ يحتاجُ إلى أدواتٍ وأركانَ ، فالمشاعرُ تنمو إذا وجدت مناخًا للبقاء...

قاطعتها :

- وقد تنتهي في لحظةٍ يقررُ فيها الشخصُ أن يتخذَ قرارًا مصيريًا بانتهاء علاقة حبّه ، يفصلُ الفراقُ بين العاشقين ، لكنّ الغرامَ لا يموتُ في القلبِ ، يتحوّلُ إلى عطرٍ ساحرٍ يمتزجُ بشدةٍ بالحنين ، وتصبحُ الذّكرياتُ هي الشاهدةُ على الوجدِ الذي لا ينتهي .
- ها أنتَ تحاولُ الالتفافَ من جديدٍ يا "علاء" !
- لا تكوني قاسيةً حبيبتي، فمعي أدلةُ البراءةِ وطوقُ النّجاة.
- أخاف يا "علاء" أن تخفقَ كعادتك في الدّفاع عن أبطال حكاياتك..أخبرني عنها، جذورِها، انتمائِها.
- فتاة يهودية إسرائيلية ، من أبٍ بولنديّ وأمٍّ روسية، كانت تعمل راقصة، والتقى بها خلال حفل للحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ ، الذي كان "درويشُ" أحدَ أعضائه قبل استقالته منه .
- راقصة ! أحد أعضائه !، يا لها من بداية مبشّرة .
- سيادة القاضية، لا تتعجّلي حكمَك .. دعيني أتلُ عليكِ أدلة البراءة " عدتُ إلى زنزانتي من جديد، وفكّرتُ بها، ماذا تفعل الآن؟ كانت في مدينة نابلس، أو في مدينة أخرى، واحدة من الفاتحين تحملُ بندقية خفيفة ، ولعلّها في تلك اللحظة كانت تأمرُ الرّجالَ برفع أياديهم، أو الرّكوع على

الأرض، أو لعلّها كانت تشرفُ على استجوابٍ ، أو تعذيب فتاة عربية في مثل سنّها، وفي مثل جمالها السّابق".

بصرامة القضاة وسخريتها التي لا ترحمُ :

- من كلامك أدينك، " زنزانتي، واحدة من الفاتحين " شاعر الأرض المحتلة يمزجُ السّمَّ بالعسل بمهارة يحسده عليها أعتى المجرمين !

في محاولة مستميتة لمنع هزيمةٍ تلوحُ في الأفق :

- اختارت "ريتا" الانضمامَ إلى سلاح الطّيران الإسرائيليّ، واختار "درويش" الوقوفَ إلى حكاية شعبه، وكتب ليرثي حبَّه.
- لكن ما أعلمه يا عزيزي أنّها هي من تركت "درويش" بعد أن التحقت بالخدمة في سلاح البحرية الإسرائيليّ رغم توسله لها بالبقاء.

ها هي قاطرات الصّدمة عادت من جديدٍ تلوحُ في الأفق :

- تقصدين أنّه وقع أسير حبّها رغم خيانتها لوطنه ؟

أخذتني من يدي.. تجاورنا عند حافة النّافذة، نتأمّل حقول القمح التي لا نهاية لها إلّا من غابات إسمنتية متناثرة :

- صاحبنا متقلبُ المشاعر يا صغيري لا يدري أين يضع قدمه ؟ فتارةً يتنكر لها : " لا أعرفُ امرأة بهذا الاسم فهو اسم فنيّ، ولكنّه ليس خاليًا من ملامح إنسانية محددة ".. وتارة يجعلها مجرد حظيّة من حظاياه في حافلة سفره الفاشلة بدرب العاشقين .."أحبُّ أن أقعَ في الحبِّ ، السّمكةُ علامة برجي " الحوت "، عواطفي متقلّبة، وحين

ينتهي الحبُّ، أدرك أنّه لم يكن حبًّا، الحبُّ لا بدَّ من أن يُعاش، لا أن يُتذكر".

قاربت رقعةُ الشطرنج أن تخلو من جنودي...ها أنا الملكُ الذي خذلته حاشيته على وشك الإذعان بهزيمةٍ جديدةٍ :

- إذن في رأيك هي خيانة مختلفة عن الخيانات السابقة !

بابتسامة النّصر :

- أحبُّ فيك اعترافك بهزيمتك ، وأكره ابتسامتك التي تعكّرُ عليّ حلاوة الانتصار.. في رأيي إنّ خيانة الوطن من أسوأ أنواع الخيانات .
- لكن ألا يشفعُ له حين اكتشفَ بأنّها من مخابراتِ الموسادِ الإسرائيليّ اعترافه؟.. " رُبّما لم يكن شيئاً مهماً بالنسبة لك يا "ريتا"، لكنّهُ كان قلبي"

لم تمهلني كثيرًا، وقضت على آخر أملٍ بضربتها القاضية:

- إذن فسّر لي : " اليهودُ بينهم السيءُ وبينهم الجيدُ، وهم ليسوا ملائكة كما يريدون أن يقولوا عن أنفسهم، وليسوا شياطين، إنّهم شعبٌ طبيعيٌّ، ومن حسناتهم أنّهم ليسوا فقط شياطين أو ملائكة، وهم مجموعة من الشّياطين والملائكة ".

حاولت أن أفسدَ عليها حلاوة انتصارها، ولكن صدمتي بددّت كلَّ مزاعم التّماسك وعبثية مقاومة الانهيار ، سخرتُ من نفسي وأنا أردد قوله : " وكُنتُ أُطعمهُ قمحَ فُؤادي براحتي، عجبًا كيفَ باتَ يُرضيهِ فُتاتُ الطريق؟! "

وهي تتأمّلُ بعمقِ الحقولَ المحيطة بمدرستي :

- عليك أن تثقَ بجذور قمح بلادك وسنابلها الذّهبية أكثر من ثقتك بإخفاقات العاشقين .

تعلّقتُ بيدها لتستقرَّ عليها أنفاسي المتعطشة لشاطئٍ بلا حرمانٍ ، لعلّ أصدقَ ما قاله صاحبُنا : " أنا العاشق السيئ الحظّ ، لا أستطيعُ الذهابَ إليكِ، ولا أستطيعُ الرّجوعَ إليّ". خفتت حرارةُ يدي وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي وفي مخيلتي صورة "درويش" وهو يستميتُ في دفاعه عن مرثيته :

شتاء "ريتا" الطّويل .
إنّي ولدت لكي أحبّك .
وتركتُ أمّي في المزامير القديمة تلعنُ الدّنيا وشعبَك.
ووجدتُ حراس المدينِة يُطعمون النّارَ حُبَّك .

مجردُ ظنونٍ

على غير عادتها، وبدون موعدٍ مسبق حضرت "سارّة" إلى بيتي ليلًا، رحّبتُ بها ، وجلسنا نحتسي الشّاي الذي لا أظنُّ أنّ أحدًا يجيدُ إعداده مثل أمّي، كاد الفضولُ يقتلني حتى بادرتني "سارّة" وهي تنظر لأمّي :

- اشتقتُ لكوبٍ ثانٍ من الشّاي من يد أمّي .

ابتسمت أمّي :

- البيت بيتك يا " سارّة ".
- أنت أمّي الثّانية يا أمَّ "جاسمين" ، أين قِطَعُ الكيك التي تشدني إلي بيتك من على بعد أميال؟

ابتسمت أمي، وعلمت أن "سارّة" تريدُ أن تتحدث معي وحدنا، وبدون مقدمات، سألتها :

- ما الأمر الذي لم تتحمّلي الصّبر عليه حتى الغد؟
- هل أعجبك ما فعلته اليوم صديقتك "هند " ؟

بنظرة استغراب :

- ماذا تقصدين يا "سارّة" ؟
- هل تثقين في صديقتك يا "جاسمين"؟
- أخشى أن يزعجك جملتي المعتادة، أنت تبالغين كثيرًا يا "سارّة" ، ردّدتها معي "سارّة" في الوقت نفسه.

بدأت "سارّة" بغمس قطع الكيك في الشّاي :

- لن أطيل عليك يا "جاسمين" .. صديقتك تدّعي أنّها تحبّك، لكن لغة جسدها ونظراتها تُكذّبُ هذا الادعاء.

حاولتُ أن أقتل شكوك "سارّة" في مكامنها الأولى :

- ها أنتِ قلتِ بنفسك : نظرات، قد تكون مبالغة منك يا "سارّة".
- تذكرين يا "جاسمين" حين نظرت لعقد الياسمين حول عنقي، ورد فعلها ّ!
- نعم، نظرت إليكِ ووجهت الكلام لي قائلةً : كم يبدو عقد الياسمين جميلًا حول رقبتك يا "جاسمين ".
- دعيني أثبت لكِ أنّها ليست مجرد ظنون..هل كان من الطّبيعيّ أن تقبل مني عقد الياسمين؟
- وما المستغرب في ذلك يا "سارّة" ؟
- هل لاحظتِ طريقة مصافحتها لي عند مغادرتها المكتبة، ثمّ احتضانها لكِ بطريقةٍ مبالغٍ فيها، ثم حديثها عن بيروت؟

حاولتُ التّقليلَ من شكوك "سارّة" ، رغم أنّها لمست شيئًا بداخلي جعلني استرجعُ شريطَ الذّكريات منذ تعرّفتُ إلي "هند" :

- لعلها متوترةٌ بسبب سفرها المفاجئ .
- لا يا "جاسمين ".. سفرها مُرّتبٌ له مسبقًا، وله توابع تتعلق بكِ؟
- أفصحي عن شكوك يا "سارّة".
- ليس الآن يا "جاسمين" ، ولكن دعيني أضع علامة تعجب أخرى على ردّ فعلها حين طلبتِ منّي عُلبة المناديل الورقية كي نجفف عرق "علاء".

- كثرت علامات تعجبك يا "سارّة." .وما موضع "علاء " من الإعراب الآن؟

ابتسمت ابتسامتها التي لا تقلُّ غموضًا عن علامات تعجّبها :

- هل تعلمين أنّه من ساكني برج السرطان؟
- سرطان !، هل سبّبت لك قطع الكيك لوثة عقلية يا "سارّة"؟

ارتفعت ضحكاتها بصورةٍ لفتت انتباه أمّي :

- لم أعهدك تعدين عليّ قطع الكيك يا "جاسمين ".

قطعت أمّي علينا حوارَنا .

- أيّتها الحسناوات، وقتٌ مستقطعٌ ، ما رأيكما أن تشاهدا معي هذه الحلقة من برنامج " أحمر بالخطّ العريض" لـ"مالك مكتبي"، ثمّ نتناقش في محتواها ؟

سارعنا لاتخاذ أماكننا قريبًا من شاشة التّلفاز، حلقة جريئة كالعادة من حلقات "مالك مكتبي" دارت رحاها بين زوجةٍ طعنها زوجها في مقتل حين خانها مع امرأةٍ ساقطةٍ تتاجرُ بجسدها مقابل المال ، والطّرف الثّاني تلك المرأة اللعوب..ما هالني جراءة العشيقة وتماسك الزّوجة الجريحة.

سأل "مالك" تلك المرأة التي اقتحمت حياة الزّوجة :

- كيف ترين نفسك ، وقد أفسدتِ حياة تلك الأسرة وحطّمتِ استقرارها ؟

أجابت بكل وقاحة :

- أنا إنسانة فعّالة في المجتمع ، وأفتخرُ أنّي عشيقته.

سخرت منها الزّوجة :

- بل أنت خطّافة رجال وخرابة بيوت، وتمارسين الزّنا مع مَن يدفع لكِ .

ردت عليها العشيقة بوقاحةٍ تُحسد عليها :

- ما دمتِ لم تستطيعي الحفاظَ عليه فلا تلومي إلّا نفسَك ، أمّا أنا ، فأفتخرُ أنّي عشيقته مدى الحياة .

ردّت عليها الزّوجة بثقةٍ بالغة :

- لن يستمرّ معك أكثر من سنة، ثمّ بعدها يبحثُ عن وعاءٍ آخر ليفرغ فيه شهوته.

سألها "مالك" :

- هل لا زلتِ تدافعين عنه ؟

أجابته بحرقة :

- من حقّي أن أدافع عن بيتي وزوجي ضد أمثال هذه السّاقطة.

علت ضحكات العشيقة :

- ابحثي إذن عن السبب الذي من أجله تركك .

أجابتها:

- الرّجالُ أعينهم فارغةٌ لا يملأها إلّا التّرابُ.

ردّت عليها :

- بل دعيني أخبرك عن السبب ؛ من أول يومٍ وقد أخبرني أنّه بحاجةٍ إلى الحبّ والاحتواءِ ، وأنّه يعاني النّقص.

نظرت إليها الزّوجة نظرة ازدراء :

- أنتِ مجرد أداة لتلبية رغبات الرّجال .

قاطعها "مالك" موجهًا سؤاله للعشيقة :

- عندما رآكِ هل نظر إليكِ من أسفل إلى أعلى أم العكس؟

ابتسمت وكأنّه يمتدحُ عفتها وشرفها :

- من أسفل إلى أعلى .

سألها :

- وما صفاتُ الرّجلُ الذي يرضي غرورك ؟

أجابت بثقةِ أبناء السّفلة حين يتفاخرون بوضاعتهم :

- أريده فحلًا في كلِّ شيءٍ.

سخرت منها الزّوجةُ :

- إذن عليك أن تختاري حمارًا ليلبي نزواتك .

انتهت الحلقة.. خيّم الصّمت علينا ، وكأّن دقاتِ السّاعة رعودُ السّماء تصمّ الآذان ، نظرت إلينا أمّي :

- في رأيكما هل كان على الزّوجة أن تستميت في الدّفاع عن زوجها الذي خانها، ولم يحفظ عهود الحبِّ ومواثيق الزّواج ؟

أجابتها "سارّة" :

- في رأيي كان عليها أن تنهي حياتها معه حفاظًا على كرامتها، وعليه أن يحترم رغبتها، فـ"إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ".

نظرت لي أمّي وهي تتطلع إلى إجابتي، لكنّى آثرت الصّمتَ ، فقد أصابتني الحلقة بالغثيان .

ربتت أمّي كتفي :

- لندع النّقاش الآن، يبدو أنّني وثقت في "مالك مكتبي" أكثر من اللازم حين دعوتكما لمتابعة حلقة اليوم .

حاولت " سارّة" أن تخفّف عن أمّي :

- لعلك تحنين إلى لبنان موطن آبائك يا أمّي من خلال متابعة برامجه، والخطأ ليس خطأك بكلِّ حال .

انصرفت أمّي لغرفتها بوجهٍ غير الذي كانت عليه قبل مشاهدة هذه الحلقة المشؤومة.

نظرت "سارّة" نحوي:

- يبدو أنّه يومُ رعودٍ وبروقٍ وعواصفَ وأعاصيرَ .. بعيدًا عن الحلقة يا "جاسمين" ما رأيك في "مالك مكتبي"؟

نظرتُ إليها وأنا أحاولُ منع التثاؤب فأنا على وشك نفاد بطارية طاقتي :

- لا يعجبني جراءته ولا طريقة إدارته للحلقات ، فنحن في النّهاية مجتمع شرقيّ له خصوصياته.

وكأنّها كانت تمهّدُ بسؤالها لضربتها التّالية :

- وما رأيك في زواجه من "نايلة تويني"؟

حاولت أن أتغابى لكسب مساحة أكبر كي أفهم حدود ما ترمي إليه "سارّة "

- من أية ناحية ؟

اقتربت منّي في جلستها لتحاصرني بسؤالها :

- تعلمين أنّه مسلمٌ شيعيّ وهي مسيحية ، وقد تزوجا زواجًا مدنيًا بقبرص؛ لأنّ المجتمع الشرقيّ يرفضُ تلك الزيجات.

تعمدتُ هذه المرّة أن أبالغَ في التّثاؤب كي أغلقَ هذا الحوار:
ـ دعينا نقف عند هذه النّقطة ونكمل مرّةً أخرى.
بإصرارها العنيد :
- لن تحتاجي أكثر من خمس دقائق يا "جاسمين" ، وبعدها أعدك أن أغادرَ غير مأسوف عليّ .
- سؤالك فيه الإجابة يا "سارّة"، فالمجتمع لا يقبل أبدًا ، ويضع العراقيل والمستحيلات أمام المحبين، وفي نهاية المطاف يؤول الأمرُ إلى الفشل وتحطّم الآمال على صخرة العادات والعصبية الدّينية.
- لكن يا "جاسمين" هناك تصريحٌ لـ "نايلة" قالت فيه: العائق موجود ولا يمكن إنكاره، لكن من جهة أخرى أنا ابنة بيت "التويني" الذي تأسّس على الزّواج المختلط، حين تزوج جدي "غسان" بجدتي الدرزية "نادية"، ووالدي نصفه درزي ونصفه أرثودوكسيّ .
- نعم قرأتُ هذا التّحقيقَ معها، ولا زلتُ أذكر بعضًا من أجوبتها ، قالت: أنا مستعدة لفعل المستحيل لأكون بقرب من أحبُّ ، نحن على توافقٍ تامٍ، ونمتلكُ النّظرةَ ذاتها إلى الحياة .

لملمت "سارّة" حقيبة يدها، ثم نظرت لي وهي تغادرُ بيتي :
- إذن نحن متفقتان .
انتفضت من مكاني وكأنّها انتزعت منّي اعترافًا أرغمتني عليه:

- على ماذا أيتها الماكرة ؟
- التوافقُ يا "جاسمين" ، التوافقُ بين الشّريكين، حين يكون ُلديهما الإرادةُ والتّصميمُ على تباعات الاختيار، حين يمتلكان المبادئ التي لا تأبه بفلسفة القطيع، حين يمتلكان الطّموح نفسه ويتبادلان الحبَّ والاحترامَ والثّقةَ..قوة العلاقة يا "جاسمين" تواجه أية عوائق مهما كانت المستحيلات.

ما بين النّوم واليقظة وقد استسلمتُ لنوبات التّثاؤب :

- ربّما يا "سارّة" ربّما .

كبرياءُ أنثى

يومٌ مُعادٌ من أيام مدرستي المتطرفة، مدرسة البين بين ، على حافة المدنية الخانقة وحقول القمح وأشجار النّخيل.

دعاني صديقي "أسامة" لحضور حصّة من حصص تدريس النّصوص الأدبية ، وهو النّاطق المفوّه، ذو الصّوت الجهوريّ، كم أعشقُ ملكاته في تحكمه في إيقاع الصّوت ونغماته ! أمّا لغة جسده فكأنّه يأخذنا قسرًا إلى عوالم القصيدة وخصوصياتها، وكأنّ الشّاعرُ أجازه كأحد الرّواة .

هلّا سَأَلتِ الخَيلَ يا اِبنَةَ مالِكٍ
إِن كُنتِ جاهِلَةً بِما لَم تَعلَمي
يخبِركِ مَن شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنَّني
أَغشى الوَغى وَأَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

وقف "أسامة" يلتقطُ أنفاسَه بعدما صال وجال ، ثمّ توجّه نحو طلابه متسائلًا :

- مَن منكم يعرّفنا بشاعرنا اليوم ؟

رفع أحدُ الطّلاب يده طالبًا الإذن من معلمه فأذن له :

- "عنترة بن شداد العبسيّ "، الفارسُ والشّاعرُ الجاهليّ المشهور بحبّه لابنة عمه "عبلة"، والذى صارع من أجل اعتراف قبيلته بنسبه لأبيه "شداد" ،وحقّق الشّرفَ والمجد بسبب فروسيته وشجاعته في مواجهة الأخطار.
- أحسنت يا بُني ، مَن يخبرنا عن جو القصيدة ؟

انبرى طالبٌ آخر مستلهمًا فصاحة معلمه :

- إن "عنترة" متيمٌ بحبّ "عبلة" ، وطالب بحرّيته ولكن قومه رفضوا ، فذهب إلى قبيلة بنى عامر فانتهزت قبيلة هوازن الفرصة وهاجمت عبس ، فاستنجدوا بـ "عنترة" فأسرع إلى نجدتهم، وأنشد هذه القصيدة .

نظرة "أسامة" نحوي نظرةَ استجداءٍ خوفًا من تعليقي على هذه المعلومات المنقوصة ، يا للوقاحة ! حتى تاريخ الشّعراء ناله الزّيفُ والتّضليلُ ، يقولون: إن التّزييف لا يخرج عن أمرين اثنين ؛ أولهما تغيير الحقائق التّاريخية المثبتة لصالح مجموعة معلومات وأخبار كاذبة تُصنعُ في عقول كاتبيها؛ وثانيهما حجب كامل للحقائق في أحداث معينة مما يُسبّبُ تشوهًا في المعلومات المتاحة، فيؤدي بالضرورة إلى قراءة خاطئة للوقائع التّاريخية ، لا أدري ما الذي ذكّرني الآن بمقولة "جورج أويل" صاحب رواية 1984، " لقد لاحظتُ في مرحلة مبكرة من حياتي أنّ الصّحف لا تنقلُ أبدًا أيّ حدثٍ كما حدث فعلا، إنّ مَن يتحكم في الماضي يستطيعُ التّحكم في المستقبل، مَن يتحكم في الوقت الحالي يستطيعُ التّحكم في الماضي" ، جلتُ بخاطري في واقعنا العربيّ الذي تلاعبُ به فيروس التّزييف ! تذكّرتُ نكبة 48 حين روى الخراصون أنّنا انتصرنا في تلك الحرب دون أدنى دليل ، ثمّ كارثة 67 الكبرى التي تحولت فيها الهزيمة المذلة إلى نكسةٍ في مسارِ الانتصاراتِ، وليس مجنون كوريا الشّمالية عنّا ببعيدٍ ، أشخاص خضعوا للتعذيب والسّجن لمجرد أنّهم شاهدوا

مسلسلات درامية أجنبية أو اعتنقوا عقيدة دينية، وآخرين غادرتهم أرواحهم لأن دموعهم في ذكرى وفاة والد الزّعيم الملهم لم تَرُق لهذا الابن الضّال ! يبدو أن عدوى "عنيزة" في النّظر للأمور وغربلتها قد أصابتني في مقتل ! كم رأيتُ فيك نموذجًا يُقتدى به في الحبِّ العذريّ يا "عنترة"! حبًّا تجلّت فيه معاني التّسامي الرّوحيّ والشّغف الإنسانيّ والوله كعلامة فارقة على العشق الكبير شأنها كقصة "قيس بن المُلّوح" و" ليلى العامرية " ، و" روميو" و"جوليت" .

يا عَبلَ إنَّ هَواكِ قد جازَ المَدى
وأنا المُعنَّى فيكِ من دون الورى
يا عَبلَ حبُّكِ في عِظامي مَعَ دَمي
لمَّا جرت روحي بجسمي قدْ جرَى

- كيف انقلبتَ على "عنترة" رمز الوفاء والحبّ العذريّ العفيف المجرّد ؟ ، قالها "أسامة" وهو يقتحمُ خلوتي في الغرفة النّائية بمدرستي المتطرفة ؛ مدرسة البين بين على حافة المدنية الخانقة وحقول القمح وأشجار النّخيل .

استعرتُ من حبيبتي "عنيزة" أسلوبَها الذي لا يُرام في إرباك الخصم واستنزاف طاقته :

- الشعب العربيّ يا "أسامة" حنونٌ بطبعه ، يُصدّق ما يقال له دون تحري الدّقة في مصادره، ويحلمُ كلُّ امرئٍ منهم بالحبِّ العذريّ، أسوةً بمَن سبقوه من أبطال أساطير العشق العربيّ ، أمثال قصة "قيس وليلى" و"عبلة

وعنترة بن شداد"؛ "عنترة " الذي لم ينتهِ صراعه مع قبيلته عند حدِّ التبرؤ؛ وإنّما امتد لرفض زواجه من محبوبته " عبلة " التي راح يحاربُ القبائل من أجل الفوز بها.

قاطعني "أسامة" وقد استغرقته الدّهشة والتعجب :

- لكن قصة "عنترة" تتناولها الأفلام وكتب سير الشّعراء، على أنّه عشق "عبلة" بطريقة الحبِّ العذريّ، وأنّ عشقه لـ"عبلة" كان مخلصًا حتى استمر إلى بعد مماته بمئات السنين !
- تعلم يا "أسامة" أنّي في سيري المضني في دروب العاشقين وقصصهم الملهمة لا زلتُ أبحثُ عن شريكة حياةٍ بمواصفاتٍ خاصةٍ لن أتخلى عنها قيد أنملة.

نظر إليّ نظرة شفقة يشوبها شيءٌ من السّخرية :

- ولمّا تجدها !
- للأسف يا "أسامة" .. حقيقة "عنترة" ليست كما صوّرتها أفلامنا العربية من نبلٍ وشيمٍ وإخلاصٍ ، حيثُ تزوّج ثماني نسوةٍ بعد زواجه من"عبلة" قبل أن ينتصف عامهما الأول، عندما لم تفح رائحة الإنجاب من رحمها.

وكأنّه تقمّص دوري في دفاعي عن أبطال حكاياتي أمام المحاكمات التي تنصبها "عنيزة لهم".. قاطعني قائلًا :

- زيجات شرعية يا صديقي .

ابتسمتُ ساخرًا :

كدتُ أسلمُ لك، ولكن ماذا عن خياناتٍ تجاوزت الخمس وثلاثين مرةً كما وردت في بطون الكتب ؟

- لا يا "علاء"، لن أهدم تلك الصّورة الرّومانسية، هل نُزيّفُ الحقائق لطّلابنا ؟ أتريدُ هدمَ أسطورة الحبِّ العذريّ التي يتغّنى بها الشّعراء والرّواة عن "عنترة"؟
- ربّما تجدُ بريقَ أملٍ يبّررُ له نزواته يا "سمسم ".

تطلّع نحوي وكأنّ كلمتي طوقُ نجاةٍ مُدَّ من خلال الموج لغريقٍ:

- لم تكن زيجات "عنترة " يا صديقي بالمثالية التي رسمتها في خيالك ، فكانت الغرابة هي السّمة الأساسية التي كست تقلباته العاطفية والزّوجية.
- لن أسلّم لك بسهولةٍ ، على المدعي البينةُ .
- دعني أقرأ عليك من دفتري الذي أدوّنُ فيه ملاحظتي ، لندع صاحبَ كتاب الأغاني يفضضُ ما أُشكل عليك : " وكانت أولى زوجاته تدعي "مهرية"، والتقاها "عنترة" في أرض بنى دارم عندما سُرق منه حصانه، فأعجب بها وبات عندها ليلةً واحدةً ، تلك الليلة كانت كافيةً لأن تقع المرأة في غرام "عنترة" ، فينكحها ويتركها بعدها دون أن يعلم أنّه ترك في رحمها ابنه "ميسرة"، ولم تستطع مهيرة ابنه الأحرار البوحَ بأنّها طارحت شابًا الفراش وأنجبت منه، فبقى الأمر سرًا، وربّت "مهيرة" ابنها بعيدًا عن قومها حتى كبر وحارب أباه ".

- دعني أسلمُ لك فرضًا أنّه تعدّدت زيجاته، لكنّه يظلُّ رمزًا فريدًا في الرّقة والعفة والرّومانسية المفرطة.

اقتربت منه وأمسكت بيده :

- ما رأيك أن تقرأ أنت هذه المرّة بنفسك أيها المجادل ؟

بنبرة المتشكّك المرتاب بدأت تخرجُ منه الكلمات خائفة مرتجفة :" ولم يتوقف "عنترة" عند حد الخيانة والزّواج العابر، فقد امتدت خطاياه حتى الاغتصاب ، حيث أعجب "عنترة" بفتاة تدعى "غمرة" كانت فارسة ومحاربة ظلّت تحاربُ "عنترة"، ولم تيأس وهو يحاربها دون أن يعلم أنّها امرأة، وبعد أن عرف ونظر إليها أغرم بها، فلم يترك "عنترة " للزّمان مساحةً لتمهيد هذا الحبِّ ، فأوقعها عن فرسها واغتصبها عُنوة وقسوة ثمّ تركها وهو لا يعلمُ أنّها تحملُ في أحشائها ابنه " غصوب " ، توقف "أسامة" عن الإلقاء، وترك الدّفتر، وقد خسر خطوتين للخلف تضاف لنقاط الخسارّة التي بدأت تتسربُ من بين يديه.

دعني أكمل لك يا "أسامة" .. ولم تستطع "غمرة " هي الأخرى الاعتراف لقبيلتها بما حدث من "عنترة" ، لذا لم تعترف بالابن، وربّته عندها على أنّه عبدٌ .

- وهل أثمرت تلك النّزوات مزيدًا من فاكهة العلقم المرّ يا "علاء" ؟

ابتسمتُ ابتسامة "عنيزة" وهي توشكُ أن تهزمني بالضّربة القاضية كعادتها :

- أنجب عنترة سبعة أبناء من نساء مختلفة ، "جار المعلم " و"زيدان"، و"الغضنفر" و"الجوفران" و"غصوب" و"الغضبان" و"ميسرة"، وهم الأبناء الذين عُرف أخبارهم من كتب التّراث، وما ابتلعته بطونُ الصّحراء كان أعظم .

جلس "أسامة "الأقرب مقعد، وكأنّ المصابُ مصابَه أو ربّما لشدة الصّدمة التي زلزلت أرض قناعاته من تحت قدميه :

- كم أنتِ مسكينة يا "عبلة" ! كيف تحملتِ كلَّ تلك النّزوات؟ هل تتخيّلُ أنّها لم تكرهه يا "أسامة"! بل كانت تفتخرُ بقولها: " لو ملك "عنترة" مائة امرأة ما يريد سواي، ولو شئت رددته إلى رعى الجمال ، وحق ذمة العرب إنّه يبقى لشهرٍ وشهرين لم أخليه يدنو منّى حتى يُقّبل يدى ورجلي، وإنّي معه هذا الزّمان ما رُزقت منه بولد ".
- إنها رقصة الذّبيح يا "علاء".
- بل قل يا "أسامة" : كبرياء أنثى، تلك الأنثى التي قد تضعفُ أحيانًا، تبكي أحيانًا، تحزنُ ، لكن لا تقبل بأية صورة من الصّور أن تنكسرَ، أو أن تُمسَّ كرامتها، حتى لو تخلت عمّن تعلقت به روحها وضحّت بالدّنيا من أجله.

سرح بخاطره قليلا :

- الآن فقط فهمت الحكمة التي تقول : عندما تحبّك امرأةٌ فهي تستطيعُ أن تأتيك من باريس لتُلّبي دعوتك على فنجان قهوة في الشّام، وحين يصدُّ قلبها عنك فهي أكسل من أن تناولك عُلبة السّكر.

- هل أدركت الآن يا "أسامة" كيف تحرص الأنثى أن تظلَّ شامخةً حتى لو عصفت الرّياح بغير ما تشتهي ؟ وكيف يبقى كبرياؤها هو الأهمُّ حتى لو استعارت قوة "شمشون" حين حطّم المعبدَ فسقط عليه وعلى كلِّ الشّعب الذي فيه، فكان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته.

وهو يهمُّ بالخروج ليدركَ الحصّة التّالية :

- ستبقى الأنثى لغزًا مجهولًا في الوقت الذي يعتقدُ الرّجلُ أنّه قادرٌ على حلّه..

التفت نحوي مرةً أخرى ، وكأنّه تذّكرَ شيئًا لتوه :

- متى نفرح فيك يا صديقي؟
- لا زلتُ أبحث عنها يا "أسامة".
- ومتى تجدها يا "علاء" ؟
- يومًا ما يا "أسامة" ، يومًا ما .

حالةُ حبٍّ

اختصارًا للزّمن وازدحام القاهرة الخانق سلكتُ الشّريانَ الذي يمتدُّ في جوف الأرض ، في طريقي من الدّقي إلى روكسي بمصر الجديدة لمقابلة " د.محمد صبري" المشرف على رسالتي ، وصلت إلى قسم الإرشاد النفسيّ بكلية التّربية جامعة عين شمس، وجدته في انتظاري بابتسامة الأب الشّفيق التي غادرت بيتنا منذ وفاة أبي ، بادرته :

- أعلمُ أنّك اقتطعت هذا الوقت بأعجوبة ، لذا لا أريدُ أن أهدرَ منه المزيد .

ابتسم ابتسامة مَن يعانُدُ طغيان الزّمان الذي انعكس على هيئته:

- أخبريني يا "جاسمين" عن عملك بمكتبة مصر العامة وحياتك بعد مغادرة مقاعدة الجامعة.
- هذا ما دفعني للحضور اليوم " د.صبري"، أخبرته عمّا عاينته من ردود أفعال "علاء"، وتحيري في تشخيص الأعراض التي تبدو عليه .

وضع نظّارة القراءة جانباً بعدما دوّن ملاحظاتي الخاصة بحالة "علاء" ، ثمّ نظر نحوي :

- هل أمرُه يخصّك شخصيًا ، أم حالة تتضمنها رسالتك ؟

ارتبكتُ قليلًا، فلم أتوقع سؤاله :

- لا هذا ولا ذاك، إنه العلم وشغف المعرفة يا "د.صبري"

تأمّل صورةَ الرّوائي الرّوسي "دوستويفسكي" التي يضعها على الحائط المقابل لمكتبه :

- لولا معرفتي بكِ جيدًا لقلت : إنّكِ هاوية لا تحسن تفسير الظّواهر النّفسية والاجتماعية التي تحدث أمامها لكنّي....

قاطعته على غير عادتي حين أكتفي بتشرّبِ كلِّ حرفٍ يصدرُ من بحر علمه الوافر :

- طالما مَنّيتُ نفسي أن أسألك أستاذي لماذا تضع صورة هذا الأديب في مكتبك بدلًا من علماء النفس ؟

ابتسم وعينه لا زالت على الصّورة :

- مثل مَن يا "جاسمين" ؟
- مثل "فرويد" مثلاً !
- أتعلمين أنّه امتدحه - على غير عادته – بقوله : "دوستويفسكي" معلِّمٌ كبيرٌ في علمِ النّفس لا أكادُ أنتهي من بحثٍ في مجالِ النّفسِ الإنسانيةِ حتى أجدَ "دوستويفسكي" قد تناولَه قبلي في مؤلَّفاتِه ... ، لذا فليس من المستغرب أن يكتبَ "فرويد" مقالاتٍ تحليليةً لرواياته، بل قال عنه "نيتشه": "دوستويفسكي" مُعلِّمُ النّفسِ الوحيدِ الذي استفَدتُ منه.، بل إنّه كان يعده من أفضل ما حدث في حياته بوجهٍ عامٍ...حتى " ألبرت أينشتاين" نفسه أعتبره من العباقرة القلائل الذين تفوقوا على "جاوس" عالم الرياضيات شديد الشّهرة...وقال عنه الأديب الأمريكي "إرنست هيمنجواي" إنّ قراءة أعماله

تغير ما في نفسك بتنقلها بين الهشاشة والجنون والقداسة والشّر .

- الآن فهمت أستاذي، لا زلت أحفظ له : " أن تحيا بلا أمل، هو أن تكفَّ عن الحياه".
- لهذا يمكنك يا "جاسمين" أن تثقي أن رجلاً كهذا كان يعي ما يقول .

نظرتُ إلى السّاعة التي تستقرُّ على الحائط وهي تراقبُ عقاربها التي تلتهمُ مزيدًا من أعمارنا :

- إذن ما تفسيرك يا معلمي؟
- سأضعُ لكِ عدة افتراضات ، وعليكِ أنتِ قياس صحتها، ربّما تعاني حالتك من نوبات إغماء مزيّفة مصدرها في الغالب عوامل نفسية ربّما ترتبطُ بفكرة تلاعب واحتيال المريض في تواصله مع الآخرين .
- وهل تظن "د.صبري" أنّه في حاجة إلى علاج نفسيّ؟
- لو ثبت صحة الافتراض، ولكن إياكِ أن تعرضي عليه ذلك مبكرًا، وتذكري أنّ حديثك غير الرّسميّ معه عن نوباته قد يفيدُ في مراحل العلاج .

سألته :

- ألا ترى أنّ بعض حالات الحبّ هي إحدى أعراض مرض فصام الشّخصية ؟
- لتكن هذه هي الافتراضية الثّانية يا "جاسمين"، وفي هذه الحالة فإنّ المريض يتوّهمُ أنّه في حالة حبٍّ ويعيشُ على هذا الوهم كحقيقة، والخطورة كما تعلمين أنّها تكمنُ في

أنه ليس لديه بصيره بمرضه، وبالتّالي يستمرُّ في أوهامه العاطفية وما يترتبُ عليها من معاناة.

- وقتي المحدد أوشك على النفاد "د.صبري" ، هل لديك افتراضيات أخرى؟
- ربّما تعاني حالتُك من أحلام اليقظة، حيثُ يعمدُ المريضُ إلى إعمال الذّهن في تحقيق الرّغبات، بما يحققُّ إشباعًا على مستوى الخيال .
- في رأيك "د.صبري" ما خطورة الاستغراق في أحلام اليقظة ؟
- خطيرٌ جدًا يا "جاسمين"، استنفاد جزء كبير من الطّاقة النّفسية بشكلٍ عصابيٍّ مرَضيٍّ ، قد ينتهي به إلى العجزِ عن التّمييز بين الواقع والخيال، والسيئ أن يصلَ لمرحلة الإحباط حيثُ الفشلُ في الوصولِ إلى هدفٍ ما، والمصاحب بشعور وجدانيّ بالخيبة والهزيمة ، وقد يكونُ على مستوى الوعي، والأسوأ منه ألّا يعي المريضُ بحالته .

شعرتُ بشيءٍ من المرارة في حلقي، وتعقيدات الفرضيات المطروحة، وقبل أن أغادر مقعدي حرصت على كتابة نصائح "د.صبري"، ثمّ ابتسمتُ مُحَاوِلَةً ممازحته، هل لديك أقوال أخرى " د.صبري"؟

- للأسف يا "جاسمين " من يعاني من أحلام اليقظة يعاني من عدم القدرة على التّكيف، فيستغرق في أحلامه لينال

الرضا عن نفسه ليعوض الواقع بالخيال فيكون كالمدمن سواءً بسواءٍ، فالمدمنُ يلجأُ إلى مادة مخدرة ملموسة يتعاطاها للهروب من الواقع، وصاحب أحلام اليقظة يمارسُ أحلام اليقظة هروباً من الواقع كذلك، ملاحظة أخيرة يا "جاسمين" اجعليها نصب عينيك..إيّاكِ أن يقعَ في حبّكِ ، حين يراكِ أول طوق نجاة يخرجه من دائرة أوهامه .

شكرتُ "د.صبري"، وقبل أن أغادر الكلية تعمدتُ المرورَ على بعض الأماكن التي احتضنت ذكريات سنواتِ الدّراسة الجامعية ، أين ذهب عبقها ؟ وكأنّ الدّيارَ غيرُ الدّيار، أين هدير الضّحكات النّابعة من قلوب بريئة لم تفترسها مصاعب الحياة؟ أين قلق ما قبل دخول لجان الاختبارات، وفرحة قراءة أسماء النّاجحين معلقة على النّوافذ الزّجاجية من وراء القضبان الحديدية في محاولةٍ أخيرةٍ منها لتحمينا من قطار المسؤولية الذي يدهسُ أحلامنا ؟ بخيبة أملٍ غادرت المكان وقد تيقّنتُ أن أطلالنا في قلوبنا، لا تلك الشّواهد والأحجار.

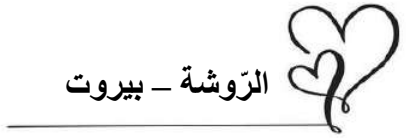

الرّوشة – بيروت

بأحد المطعام الشّهيرة بمنطقة الرّوشة..إطلالة رائعة تجمعُ البحر والسّماء، حيثُ حقوق أسراره محفوظة ، ها هي صخرة الرّوشة على الشّاطئ الغربيّ لبيروت تحرس الشّاطئ وتراقبُ في صمتٍ آلاف العاشقين الذين باحوا بأسرارهم يومًا ما.

لم تضيّع "هند" فرصة تواجدها ببيروت، وتواصلت مع صديق الطّفولة "أنطوني" ،على مضضٍ حضر "أنطوني" ليقابلها بعدما تحمّس في بداية اتصالها به ظنّا منه أنّها برفقة "جاسمين" بنت خالته وخطيبته السّابقة بأمر العائلة المتجذرة تجذّر أشجار الأَرز في جبال لبنان ، لكن ما لبث أن انطفأت جذوة اللهفة بعدما تشتت الفكرة وتبعثرت الأمنية على شاطئ الرّوشة العتيق .

بفتورٍ رماديّ وسيجارةٍ مشتعلةٍ يعكّرُ دخّانها جمالية اللوحة السّريالية :

- أهلًا بكِ يا "هند" ببلدك الثّاني .

بنظرةٍ شاحبةٍ ونبرةٍ متحيرةٍ بين الرّغبة وحَدّيها :

- اشتقتُ إليك "أنطوني" .. ولأيام طفولتنا، لكن منذُ متى ولبنان بلدي الثّاني؟ وفيها أهلي وجذوري، ولي فيها أحباء يسكنون القلب ويشغلون البال !

وهو يعبثُ بهاتفه :

- أخبريني عن مصر وعن خالتي وخطيبتي .
- بنظرةٍ حادةٍ..خطيبتك! على حد علمي أنّ العلاقة انتهت منذ أكثر من سنة "أنطوني" .

يطفئ بقايا السيجارة ويلتقط أخرى :

- أنا من يحدد يا "هند"، مَن الذي أعطاها الحقَّ أن تتخذ قرارًا منفردًا في أمرٍ مصيريّ كهذا ؟

اعتدلت في جلستها وأخرجت قداحتها ، واقتربت منه لتشعل له سيجارته :

- ماذا تعني بكلامك يا "أنطوني"؟
- أعني أنّها تخصني، وليس لديها رفاهية الاختيار، كلُّ ما في الأمر أنّي تركتُ لها مساحةً تعيد ترتيب نفسها فيها..لو كان لديّ وقتٌ كنتُ رافقتك لمشاهدة عشَّ زواجنا بأرقى أحياء بيروت.

بنبرةٍ ماكرةٍ :

- وجهات نظر "أنطوني" .
- وجهات النّظر تلك يا "هند" في اختيارك اللون الأحمر وتفضيله على الأزرق، ذوقك في تناول السّوشي أو العزوف عنه، لكن زواجي من "جاسمين" أمرٌ محسومٌ منذ مجيئنا الحياة.

في محاولة لامتصاص غضبه واحتواء نبرته الحادة :

- أخبرتها مرارًا بكلامٍ يشبه كلامك يا "أنطوني" ولكنّها دائمًا ترفضُ الحديثَ فيما يخصكما .

يبتسمُ ابتسامته المشوبة بالكبرياء :

- شكراً لكِ يا "هند" ، ولكن أخبريني عنها قليلاً .

وكأنّها أخيراً وجدت ما يجبره على استجدائها :

- ألا تتواصل معها ولو هاتفيًا ؟
- تعلمين يا "هند" أنّي لا أستقرُّ كثيرًا في بيروت بسبب طبيعة عملي ، كما أنّي دائمًا ما اضطرُّ لتغيير رقم هاتفي ... مشاغل الحياة لا ترحم عزيزتي .
- كان الله في عونك يا "أنطوني"، يعلمُ ربّنا أنّي دائما لا أذكرك أمامها إلا بكلِّ خيرٍ، وأنّها لن تجد فرصة أفضل من الارتباط بك، أتعلم لو كنتُ مكانها ما ضيعت دقيقةً واحدةً بعيدًا عنك.

يلتقطُ سيجارة أخرى، يشيحُ بيده رافضًا أن تشعل له سيجارته:

- للأسف يا "هند" أمثال هؤلاء لا يعرفون قيمة النّعمة التي بأيديهم إلّا بعد زوالها ، لكن ثقي أنّ للصّبر حدود.

لم تستطع إخفاء سعادتها :

- هل تقصد أنّك تفكر في إنهاء العلاقة إذا أصرت على موقفها ؟
- يبدو أنّ بعدك عن جبال لبنان أثّر على مستوى ذكائك ! أخبرتك يا "هند" لا رفاهية لديها في تقرير مصير زواجنا..ينادي على النّادل، نسينا أن نطلب شيئًا يا "هند".

النّادل : ـ تحت أمرك .

- أحضر طعامي المعتاد لي أنا والهانم ، وكأسين من مشروبي المفضل ، ولا تنس الثّلج .
- على رأسي معلّمي .

توجّه ناحية هند :

- دعيني أخبرك الموقف التّافه الذي جعلها تقررُ فسخ خطوبتنا كما تدّعي ، أحضرتها إلى هذا المكان وطلبت لنا طعام الغداء، هل تحبين الكستاليتة وريش اللحم وفتة الحمص وكأسين من النّبيذ الأحمر يا "هند" ؟ الغبية رفضت اختياري وطلبت قريدس مشويًا وسلطة بندورة.
- غريبة، سبّبت لكَ حرجًا أمام النّادل يا "أنطوني"، وماذا فعلت ؟
- ولا شيء ، أمرتُ النادل أن يحضر ما طلبته أنا، فما كان منها إلّا أنّها حاولت أن تغادر مقعدها ، فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أجذبها من يدها لتعود إلى كرسيها .
- فعلا هي أخبرتني يا "أنطوني" عن هذا الموقف، ولكن طبعًا من وجهة نظرها .
- وجهة نظرها ! ماذا قالت لك تلك الغبية ؟
- قالت : إنّك رفعت صوتك حتى انتبه كلُّ مَن كان بالمكان، وجذبتها من ذراعها بشدّة حتى كادت تقطع على الأرض .

بعصبيةٍ ونبرةٍ حادةٍ :

- غبية ، وتمارس الكذبَ كعادتها .

يحضر النّادلُ ويضعُ الطلبات على الطاولة ويهمُّ بالانصراف :

- في خدمتك يا معلمي .

ينادي عليه بنبرة صارمة :

- أين الثلج يا غبيّ ؟

بتوترٍ وحرجٍ بالغٍ :

- الثّلجُ أمامك يا معلّمي .
- هل تُكذّبني ؟ لعنة الله عليك وعلى مَن وضعوك في هذا المكان ، أحضر الثّلج حالًا.

محاولاً استعادة توازنه والاختفاء عن أعين الناس :

- على رأسي معلّمي .

ينظرُ نحوها :

- هل رأيتِ يا "هند" ؟ غبيّ من عينة "جاسمين" ... ينفثُ الدّخانَ في وجهها .
- شوية شوية يا "أنطوني" ، أعصابك تحترقُ يا عزيزي.

يعودُ النّادلُ بسطلٍ ممتلئٍ بالثّلج :

- تحت أمرك يا معلّمي .

يمدُّ يده في جيبه ويدسُّ البقشيش في يد النّادل، وبصوتٍ مسموعٍ :

- هذا البقشيشُ لك كي تهتمَّ أكثر بعملك .

يلتفتُ نحوها :

- لم تخبريني يا "هند" عن عملها وعلاقاتها .
- تعملُ في مكتبة مصر العامة، وأغلب وقتها ضائعٌ من أجلِ حصولها على درجة الماجستير .
- غبية ! طلبت منها أن نسارعَ بالزّواج ، ونطوفَ كلَّ مدن العالم بدلًا من انشغالها بتلك الأمور التي لا طائل منها،

تعمل بمكتبة عامة ؟ أتعلمين لو قدمتُ طعامًا مثلَ الذي أمامك لخنزيرٍ لتركه واندفع يأكلُ من القمامة ويتمرّغُ في الوحل !

- نسيتُ أن أخبرك ، هي أيضًا مشغولةٌ بتطبيقٍ عمليٍّ على رسالتها على حالةٍ مستعصيةٍ تحضرُ لديها بالمكتبة .
- مستعصية ! لا أفهمك.
- حالة مَرَضية يبدو أنّه يعاني من هلاوس سمعية وبصرية، لا أدري لماذا تدخل نفسها في هذه المتاهات ؟
- لا جديد، وكأنّ خالتي كانت ترضعها الغباء، سعدت بلقائك يا "هند"، متى تعودين لبلدك ؟
- لا زلتَ تصمّمُ على أنّها بلدي؟ في نهاية الأسبوع يا "أنطوني"، هل تريدُ منها شيئا ؟
- وما الذي أريده من مصر؟
- "جاسمين" يا "أنطوني" ، "جاسمين" .
- حاولي أن تردي إليها عقلها يا "هند"، أخبريها أنّي على أتمّ الاستعداد أن أتجاوزَ عن موقفها الأخير وأغفرَ لها حماقتها وأعطيها فرصةً جديدةً لا تحلمُ بها الكثيرات.
- أعدك يا "أنطوني"، أعدك ... محدثةً نفسها : أصدق كلمة قلتها اليوم يا "أنطوني" .. غبية.

لا تخجلي

على غير عادته قرّر "أسامة" أن يحضر معي اليوم لمكتبة مصر العامة ، لم يمهلني كي أستوعبَ أسباب التغيير الذي ألمّ به، رغم صداقتنا التي تمتد جذورها إلى فترة الطّفولة، ورغم أنّه أقرب أصدقائي وبئر أسراري العميق ، إلّا أنّنا مثل قضبان السّكة الحديدية ، نتجاورُ، نتحاورُ، لكن لا نلتقي في خطٍ واحدٍ، هو يعشقُ الأماكن المزدحمة ، لا ينزعجُ من الأصوات العالية، يعشقُ مشاهدة مباريات النّادي الأهلي ومنتخب مصر بالمقاهي المزدحمة، حيث تختلطُ أصوات النّرد وقرقعة النّرجيلة وآهات مجانين الكرة ولعنات المعترضين على سوء أداء بعض اللاعبين وخطط المدرب الفاشل ما دام لم يحز سبق الانتصار، فئةٌ كادحةٌ دهسها قطارُ الحاجة، فتناثرت كرامتهم داخل البيت وخارجه، يصبون جام غضبهم على الكرة ، فلا يوجدُ قانون في بلاد العروبة يعاقبُ لاعني الكرة ومَن يتعاطونها، حتى اللعنات لها فلسفة خاصة في بلادي، منها ما يُسَكِّنُ آلام الانسحاق الآدمي، ومنها ما يقودُ صاحبَها إلى طريقٍ أحادية الاتجاه.

سألته ونحن نعبر الطّريق تسبقنا أنفاسُنا المتقطّعة، فلا توجدُ قواعدُ مرورٍ تلتزمُ بها العربات الطّائشة .

- ما الذي جعلك تضحّي اليومَ ، وتضيّع عدة ساعات في جوف الصّمت وتراجم الموتى القابعين على أرفف المكتبة؟
- هل تمانع أن أشاركك مخاض كتاباتك حين تغيبُ عن العالم ، ويبلعك الثّقبُ الأسودُ ، أو ما تسمونه أنتم معشرَ المجانين بالوحي والإلهام ؟

لم أستطع منع ضحكاتي من طريقته وسخريته، حتى "جاسمين" و"سارّة" لم تسلما من أسئلته المستفزة ، الغريب أنّ "سارّة" بادلته طريقته السّاخرة ، هل المعضلة تتعلّقُ بي أنا ؟ لكنّي لم أرَ "جاسمين" تضحكُ من طريقته الهزلية ! لا أدري...أين يكمنُ الخلل ؟، طلبت منه "سارّة" أن يدوّن اسمه في دفتر الزّوار، الأحمق سجل اسمًا مستعارًا ... "عادل إمام" ، لم يمرّ الأمرُ على "سارّة" مرَّ الكرام .

- "عادل إمام" ! هل هو تشابه أسماء أم أنّ السّتّ الولدة قررت أن تسمّيك على اسمه لأنّها من محبيه ؟ "بلد بتاعة شهادات صحيح " .

ألجمت طريقتها السّاخرة ،وردّها المفاجئ "أسامة"، فلم يتوقع سرعة البديهة من جانبها، والتي استعارت تلك الجملة من مسرحية " أنا وأنت وهي " والتي شارك فيها "عادل إمام" في بداياته الفنية، في دور أقرب ما يكون من هيئة الصّعاليك ، حاول "أسامة" أن يمتصَّ تلك اللكمة الفنية، ليعيد ترتيب أوراقه، فهو ذو الأصول الصعيدية الذي لا يترك ثأره بحالٍ من الأحوال، أمسك بدفتري وبدأ يتصفحه، ويقرأ بعضًا

من أشعاري بصوته الذي يحببني فيما أكتب، وكأنّي أسمعُ تلك الكلمات للمرّة الأولى .

لا تخجلي.
إنْ طاحَ عنكِ قناعُ زيفٍ وانفلت .
لا تخجلي .
أمواجُ بَحْرِكِ يا معالمَ خيبتي .
مِلْحُ أجاجٌ ، وان تمادت واحتوت .
لا تخجلي .
أمثالُ نبتكِ كالحاتٌ كالرّدى .
وحنايا قلبي شامختٌ لم تمت.
لا تخجلي .
يا شؤمَ حبّي وانكساري وسوأتي .
راياتُ نصرك قد توارت وانحنت .

رغم روعة إلقائه وتألقه المعتاد ، لكنّه نسي أنّه بمكتبةٍ عامةٍ، لا يجوزُ فيها ما يجوزُ في مدرستي المتطرفة ، مدرسة البين بين،على حافة المدنية الخانقة وحقول القمح وأشجار النّخيل .. صوته لفت انتبه المتواجدين بقاعة المطالعة ، نظرتُ إليه نظرة حنقٍ وعتابٍ :

- أخبرتك أن تخفض صوتك، ها أنت جلبت لنا المتاعب إلي مملكتي الصّامتة، توقّعتُ أن يتمّ طردنا من المكتبة لما سببه "أسامة" من إزعاج ، أو على الأقل أن يُطلب منه ألّا يحضر مجددًا.

نظرت إليه "سارّة" بحزم، لمَن تلك الأشعار التي تهاجمُ المرأة ؟ نظر نحوي وأشار بأصابع الإدانة كي ينجو بفعلته :

- إنّها له .. "علاء" ، أنا مجرد ببغاء ناطق .

نظرت نحوي وسألتني :

- هي لك ؟
- نعم، وأعتذر عمّا بدر من صديقي "أسامة" .
- لكن لماذا تهاجم المرأة في أشعارك بهذه الطّريقة الحادة؟
- معذرة، لا أفهم قصدك !

قاطعتنا "جاسمين" منهيةً صمتها :

- هذا يخصه يا "سارّة" ، بالعكس يا أستاذ "علاء"، الأشعارَ معبّرة جدًا عن حالة كاتبها، في البداية انجذبنا لصوت صديقك المميز في الإلقاء، لكن الكلمات لمست فينا الكثير من المعاني والذّكريات .
- عفوًا سيدتي، من قال إنّ الأشعار والأعمال الأدبية تعكس حالة كاتبها ؟ ليس بالضّرورة بل إنّي أرى....

قاطعني أسامة :

- أرى أنّكِ تفهمين أكثر منّي يا أستاذة "جاسمين" ولديك القدرة على نقد ما يكتبه صديقي، فهل توافقين على الإدلاء برأيك فيما سمعتيه الآن؟، خاصة وأنّ الأشعار تخصُّ المرأة، ومن واجبك أن تدافعي عن بنات جنسك ، (بدا عليها القلق) لكن .... احذفي هذه الكلمة من قاموسك الآن، أرجوكِ لا تخيبي ظنّي فيك ،ودعيني أصلح ما أفسدته في دفتر الزّوار .

نظرت إليه "سارّة" بحدّة :

- ماذا تقصد يا أستاذ "عادل"؟
- دعينا نناقش هذا الأمر بعيدًا عن مهبط وحي المجانين سيدتي .

بدون مقدمات وجدتني على الطّاولة أنا و"جاسمين" وكلانا أسير التّوتر في رحاب الاحمرار والخجل ..أخيرًا كسرتُ حاجز الصّمت :

- أعتذر لك عمّا بدر من صديقي "أسامة".
- أسامة !
- نعم ،هذه عادته في المزاح، وقد عاتبت عليه عندما زوّر اسمه في دفتر الزّوار .
- لكن دمه خفيف ، ونجح في جذب انتباه "سارّة" ، ألا تسمعُ الضحكات؟
- هو بارع يا أستاذة "جاسمين" في صنع الضّحك والبهجة وإلقاء النكات.

رفعت عينها نحوي وقالت :

- دعك الآن منه وأخبرني ، هل فعلًا هذه الأشعار لك؟
- نعم .
- وهل لك أعمال أخرى؟ ظننتك تدوّنُ ملاحظاتٍ أو تلخيصًا لما تقرأه بالمكتبة.
- أحيانًا أكتبُ بعضَ الملاحظات، لكن في الغالب أحضر إلى هنا لأكتبَ الشّعر.

- أعتذر منك من تطفّلنا عليك، ولكن أنا من محبي الشّعر والأدب، ولديّ خبرة لا بأس بها في تذوق الشّعر والأدب ونقده، وأخشى أن أكونَ قد تطفّلت عليك .

لا أدري! أردت أن أصارحها برفضي .. لكن وجدتني أوافق على عرض أعمالي عليها، ومن ثَّم الاستماع إلى تعليقاتها، تبادلنا أرقام الهواتف واتفقت معها على أن أرسل إليها بعضًا من كتاباتي عبر تطبيق الواتس آب أو البريد الإلكتروني حسبما تيسّرُ، لا أدري كم مرَّ من الوقت في حديثنا عن الأدب والشّعر ورواد القصّة القصيرة ؟ هي فعلًا صادقة في زعمها، لديها اطلاعٌ كبيرٌ ورؤيةٌ تجبرك على احترامها، شكرتها على وقتها الذي سمحت به، وانتزعت "أسامة" من مكانه وغادرنا المكتبة، تسللت كالعادة إلى غرفتي، انتظرت حبيبتي "عنيزة" كي نخوض غمار معركة أدبية جديدة ، ولكنّها لم تحضر الليلة، وقبل أن أستسلم لجنود النّوم وأرفع راية الهزيمة أرسلتُ إلى "جاسمين" عدة قصائد عبر تطبيق الواتس آب، تحولت العلامة التي بجوار الرسائل إلى اللون الأزرق، ثم ألقى الليل الضّرير بكلمته الأخيرة .

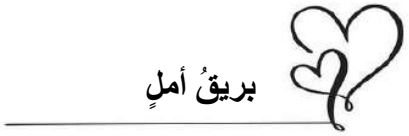

بريقُ أملٍ

" ولكن إيّاك أن تعرضي عليه ذلك مبكرًا، وتذكّري حديثَك غير الرسميّ معه عن نوباته قد يفيدُ في مراحل العلاج "، عدتُ إلى البيت، وكلمة "د.صبري" لا تزالُ تتردّدُ في أذني، اتصلتُ بـ "سارّة" وأخبرتها بما حدث، وبعد نقاشٍ حائرٍ، وحساب عواقب ما سوف نقدم عليه، وأين نضع أقدامنا ؟ قررنا زيارة والدة "علاء" لعلّها تمدّنا ببريق أملٍ لمعرفة ما يعاينه ابنها، فرحت الأمُّ جدًا بزيارتنا، لكنّها فرحة يشوبها حذرٌ شديدٌ، بدت متحيرة في تفسير حالة ابنها، سألتها...هل تعرضّ ابنك لصدمة عاطفية ؟ ابتسمت ابتسامة بطعم الحسرة وخيبة الأمل والخذلان :

- بل تعرض لصدمات.

كان هذا أول خيوط النّور التي تشبثنا بها ؛ حبٌ عذريّ من طرازٍ فريدٍ قوبل بجحود وقسوة مفرطة، بمجرد ظهور ع.ر.ي.س، قادر على تلبية طموحاتها المادية لم تفكر طويلاً ولم تمهل مَن أحبّها ليحظى ولو بفرصة لكي يحاول تلبية مطامعها وتعطشها لإشباع شهواتها، كانت حزينة على ابنها الذي تمنّت أن يجدَ امرأة تعوضه ما فاته وتحتوي أحزانه، سألتها عن علاقاته الاجتماعية، سلوكه معها، قالت :

- محبٌ للعزلة، وأصدقاؤه محدودون، وحين ينشغلُ بالكتابة يضعفُ تواصله بالمحيطين به .

سألتها :

- وهو في تلك الحالة هل يفعلُ شيئًا غريبًا كأن يتحدثُ إلى نفسه ؟ نزلت من عينها دمعة حائرة ، حاولنا استنطاقها لمعرفة المزيد، قالت :
- عليكما بصديقه "أسامة" فهو أمين سرّه الذي يطمئن إليه.

تواصلنا مع "أسامة" الذي لم يتردد لحظة في تلبية دعوتنا، واستأذن من عمله وحضر لمقر المكتبة ، بدأت الخيوط تتجمع في يدي، أو هكذا ظننتُ، سألته :

- في رأيك ما المشكلة التي يعانيها صديقك ؟
- للأسف بسبب الغدر الذي تعرّض له صار يشكُّ في كلِّ علاقة، والأسوأ من كلِّ هذا أنّه كلما قرأ في قصص الحبِّ التي خلدتها الذّاكرة البشرية التي ضحّى فيها أصحابها بكل غالٍ ونفيس، ولربّما ضحوا بحياتهم من أجل من يحبّون؛ الأسوأ أنّه ما من قصة من قصص التّضحيات إلّا ويصدمني بمفاجأة مروعة في كلِّ مرةٍ ..خيانات لا حصر لها .

نظرتُ إليه نظرة استنكار:

- خيانات !

ابتسم ابتسامة ساخرة :

- في كلِّ مرّةٍ كان يصدمني كنت أنظر إليه تلك النّظرة الحائرة، نماذج لا يمكن لكِ أن تتخيلي أنّها وقعت في وحل الخيانة، خيانة من أجل الشّهوة.

- شهوة !
- كثرت علامات تعجبك "جاسمين"، هل تسمحين بتجاوز الرّسميات قليلا كي أحرّرَ قيود الكلمات ؟
- لك هذا ولكن فسّر لي من فضلك .
- نعم يا "جاسمين"، شهوة المال، شهوة الولد، شهوة الشّهرة، شهوة الانتقام، وأسوأ منها خيانة الوطن .

وكأنّي واقعة في بحرٍ من الرّمال المتحركة، كلما حاولت الخروج منه ساخت أقدامي، وخسرت المزيد من قامتي .. كيف تكون الخيانة انتقامًا من حبيب؟ ومَن ذا الذي يخون الأوطان؟ بادرني قائلًا :

- دعيني أسألك سؤلاً قد يبدو خارج السّياق ؛ هل أنتِ من محبّي الأدب وما يسمونه عوالم الكتابة والإلهام والوحي؟

أومأتُ بالموافقة رغم أنّي لا أعي دوافع السؤال.

- إذن كي تتخلصي من حزمة علامات التّعجب التي أرهقك حملها فعليك أن تطرقي عليه هذا الباب .

بعد مشاوراتٍ بين ثلاثتنا اتفقنا على حلٍ ما كنت لأسلكه مهما كانت الأسباب لولا نصيحة " د.صبري" واستجداء "أسامة" ودموع أمٍ مكلومة..لأول مرة أشارك في مؤامرة نبيلة حِيكت خيوطها بنهار شمس أغسطس، ما بين حماسي لتقديم المساعدة لـ"علاء"، وهواجس الخوف من اكتشافه الأمر والذي سيزيدُ الحالة سوءً، قررنا البدء في تنفيذ ما اتفقنا عليه ، شَكَرَنا "أسامة" على نبل موقفنا، وسارع بمغادرة المكتبة كي يرّتب بعض شؤونه.

جلستُ بعيدًا عن مكتبي.. تكوّرتُ في الكرسيّ الذي اعتاد "علاء " الجلوس عليه، أُدوّنُ أهم النقاط، وأضع تصوراتٍ وحلولًا بديلةً قدر الإمكان ، انتزعتني "سارّة" من مقعدي،

- هيا يا "جاسمين"، حان وقت الانصراف من عملنا ... دفعتني نحو الباب ، كلها ساعات ونعود لعلمنا مرةً أخرى يا "جاسمين" ، حدسي يقولُ : إنّ أمّك ستفاجئنا اليوم بحفلة محاشي متنوعة.

انتزعت منّي الضّحك كما انتزعتني من مقعدي:

- لا فائدة فيك يا "سارّة".

دونما لقاء

وصلتُ إلى قاعة المطالعة بمكتبة مصر العامة، كان في انتظاري وإن حاول أن يخفي مخاوفه من رغبتي في مناقشته حول قصيدة " لا تخجلي "، راوغني بزعمِ أنّه يريدُ استكمال قراءة ترجمة "جبران خليل جبران"، ابتسمتُ ابتسامةً خجولةً :

- أظنُّ أنّه لا يُذكَرُ اسمه إلّا وكان مُقترِنًا بمي زيادة !
- وجهة نظر يا "جاسمين ".

وكأنّه قد اقترب من مقدساتي الدّينية التي أعتنقها :

- أظنُّ أن تجربتك الشّعرية التي أجّلت مناقشتي لها لا تجعلك تعمّمُ أحكامَك، وتلصقُ تهمًا لا بينة فيها برمزين من رموز العشق العذريّ الذي يعدُّ من أجمل القصص العربية بل والعالمية . لا أدري! شعرتُ وكأنّه يستجمعُ قواه للالتفاف على فريسته ثمّ الانقضاض عليها بما لا يدع لها مجالًا للتّراجع أو الفرار، بادرني قائلا :
- ما رأيك أن نقرأ شيئًا من الرّسائل المتبادلة بين "ميّ" و"جبران" ثمّ نقرّرُ مَن منّا على حقٍّ ؟ لكن دعينا نتبادل الأدوار .

نظرتُ نحوه بدهشةٍ بالغةٍ :

- أية أدوار؟

بابتسامة الخجل :

- تقرأين عليّ إحدى رسائل "ميّ" لـ"جبران"، ثمّ أعقبُ أنا برسالة من "جبران " لها.

وكأنّه وقع أسيرًا لدائرة التّردد والخوف خشية أن أُخيّب ظنّه وأرفض طلبه ، بدت عليه بوادر القلق، سارعتُ بمدّ يدي نحوه:

- أين تلك الرّسائل ؟

وكأنّه يتنفّسُ نفس غريقٍ أدركته يدٌ حانيةٌ من خلال الموج، بعدما أوشك على مفارقة الدنيا ..ناولني دفتره، وفتح على صفحة عنوانها " دونما لقاء "..خطوط كثيرة تشيرُ لكلمات بعينها، وكلمات أخرى محاطة بدوائر مختلفة الأحجام، وتعليقات على حاشية كلِّ رسالة أو عبارة بالقلم الرّصاص، " الحبُّ الحقيقيّ يكره التأخير ولا يحتمله " الفيلسوف الروماني "لوكيوس سينيكا، " ، لا تدعها تنتظر لأنّك تعلم أنّها ستفعل ،" مثل إنكليزيّ، " الحُبّ لَيْسَ مُطْلَقاً كَلاماً مَعْسُولاً يُرَدِّدُهُ اللِّسَان، وإنّمَا مَشَاعِرٌ صَادِقَةٌ تَتَجَلَّى في سُلُوكِ الإنْسَان"، وغيرها من التعليقات..، الغريب أنّ كلَّ تعليق كُتب بجواره ... "علاء"، والبعض الآخر أسماء أنثوية؛ "ليلى"، "عبلة"، "ياسمين"، "ميلينا"، "نَوار"، "فرانشيسكا"... وبالطبع "عنيزة"! بدت الصّفحة وكأنّها نصٌّ نقاشيّ بينه وبين ما تُدعى " عنيزة "، لم أحاول ذكر تلك الملاحظات في وقتها، فأنا أعلمُ أنّه لم يكن من اليسر أن يطمئن إليّ ويسمح لي بالقراءة من دفتره، بدأت في قراءة إحدى رسائل "مي زيادة".

" إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحبِّ ودعواه في المراقص والاجتماعات، ينمّى الحبَّ في أعماقهم قوة ديناميكية قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء السّطحيّ، لأنّهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر، ولكنّهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنّوها لنفوسهم، ويفضلون وحدتهم ، ويفضلون السّكوت، ويفضلون تضليل القلوب عن ودائعها، والتّلهي بما لا علاقة له بالعاطفة ويفضلون أيّة غربةٍ وأي شقاءٍ، وهل من شقاءٍ في غير وحدة القلب! على الاكتفاء بالقطرات الشّحيحة، ما معنى هذا الذى أكتبه؟ إنّي لا أعرفُ ماذا أعنى به، ولكنّى أعرفُ أنّك محبوبي، وأنّي أخافُ الحبَّ ، كيف أجسرُ على الإفضاء إليك بهذا وكيف أفرط فيه ؟ الحمد لله أنّني أكتبه على الورق ولا أتلفظُ به؛ لأنّك لو كنتَ الآن حاضرًا بالجسد لهربت خجلًا من هذا الكلام، ولاختفيت زمنًا طويلًا، فما أدعك تراني إلَّا بعد أن تنسى"

"ماري إلياس زيادة".

أعدت إليه دفتره، فقد حان دورَه، بدأ وكأنّه كمكعبات ثلج، بدأت تتجاوبُ لحرارة الشّمس، تتحرّرُ من جمودها وتسمحُ ببعضٍ من التّضحيات إيذانًا بقدوم الحياة ، اعتدل في جلسته وكأنّه في حضرة نصٍ مقدّسٍ يستوجبُ الاحترام : " الكلمة الحلوة التي جاءتني منكِ كانت أحبَّ لديَّ وأثمن عندي من كلِّ ما يستطيعُ النّاسُ جميعهم أن يفعلوا أمامي، اللهُ يعلمُ ذلك وقلبك يعلمُ".

"جبران خليل جبران" .

وكأنّني التقطت صولجان الانتصار :

- رسالة جبران اعتراف بحبّه لها، ألا تتفقُ معي حول هذه الحقيقة النّاصعة يا "علاء" ؟

تبدّدت ابتسامته، وحلّ مكانَها سلوكُ وكيل نيابة انبرى لفتل حبلٍ غليظٍ يُعذّبُ به المتهم قبل أن تغرب شمسه ويحل الظّلام:

- أين تلك الحقيقة ؟ وأين ذاك الاعتراف ؟
- " وقلبك يعلمُ " ألا تكفي هذه الكلمة؟ ألا يكفي سبعٌ وثلاثون رسالةَ حبٍّ جُمعت لاحقًا في كتاب الشّعلة الزّرقاء دليلًا على صدق الحبِّ وثباته بينهما ؟
- أريدُ منك يا "جاسمين" أن تحتفظي بهذا الرّقم من الرّسائل، فنحن بحاجةٍ إليه لاحقًا، دعيني أُشخّصْ لكِ موطن الدّاء ؛ أتدرين أين تحلُّ الكارثة ؟ تلك القصص التي ننسجها من وحى خيالنا لأنّنا نفضّلُ دائماً النّهايات السّعيدة والقصص المثالية، ونتغنى دائماً بالزّمن الجميل.

بداية غير مبشرة في طريقة حديثه، لولا أنّي أعلمُ بعضَ معاناته السّابقة لتفوّهت بكلماتٍ دفاعًا عن "ميّ" و"جبران" ربّما تفسدُ ما أسعى إليه، تحاملت على نفسي :

- " ننسجها من وحي خيالنا "!
- نعم ، فنحن غالباً قد نعانى من متلازمة النوستاليجيا والحنين إلى الماضي، نتخيلُ أنّ كلَّ شيءٍ مضى هو أجمل وأكثر صدقًا، في حين أنّ الكذب والادعاء والخيانة والشرَّ والحروبَ ولدت مع الإنسان .

رغم قسوة العبارة والتي تشي ببوادر جراحات دامية يخفيها اللاوعي، إلا أنّني لا زلت حريصةً على الالتزام بخطة العلاج مدركةً أهمية ما حققته معه من ارتياحه النّفسي نحوي، ويقيني أنّ علاجه لن يحدث إلّا من خلال الصّبر عليه وعدم توقع النّتائج الفورية ، " متلازمة النوستاليجيا "! يبدو أنّي أمام حالة ليست بالسهولة التي تمنّيتها .

سألته وكأنّني المتحّيرة :

- تحتاجُ إلى أدلةٍ كثيرةٍ لكي تزحزحني عن معتقدي يا "علاء".

نظر نحوي بشيءٍ من الجرأة المصطنعة :

- ألم تفترضي، ولو مرةً واحدةً أنّها كانت قصّة حبٍّ من طرفٍ واحدٍ، راحت ضحيتها "ميّ زيادة" والتي أفنت حياتها من أجل سراب اسمه "جبران خليل جبران" لم يعشقها كما تلصقون به، أو كما توهّمت "ميّ زيادة" ، والتي لم تمثّلُ له سوى امرأة ضمن الكثيرات اللواتي يدرن في فلكه ؟
- كثيرات ! وكأنّه يجبرني على تنحية ما جئت من أجله، وكأنّه يسلبني أدواتي، ماذا تعني بكثيرات؟ وما دليلك على ذلك ؟
- علاقاتٌ متعددةٌ مع أمثال "جوزفين بيبودى"، "وحلا الضاهر"، "وسلطانة ثابت"، "ومارى هاسكل"، "وإميلى ميشال"،.... قافلة لا تنتهي عرباتها، ربّما

تتخطى اثنتي عشرة امرأة ، أمّا دليلي فصديقه "ميخائيل نعيمة " الذي كشف ستر صديقه بعد وفاته.

بثبات الواثق :

- **وما يدريك أنّ "ميخائيل نعيمة" كان صادقاً؟**
- **تذكرين الرّقم " 37 "؟**
- **نعم، ولكن ما علاقته بدعوى عدم حبِّ "جبران" لـ"ميّ زيادة "؟**
- **هل تعلمين أنّ "جبران" أرسل ثلاثمئة وخمس وعشرين رسالة إلى "ماري هاسكل" وحدها بين 1908 و1931.."جبران" كان مولعًا بكتابة الرّسائل سيدتي، فما بعث به إلى "ميّ" ليس سوى جزء من سلسة رسائل تفنن في كتابتها ولم يخص بها أحداً.**

تمنّيتُ أن أصرخ في وجهه ، أنتَ تهرفُ بما لا تعرفُ .. لم يمهلني، وبادرني بحجرٍ آخر يهزُّ أركان بنياني.

- **دعينا نحلّل تلك العلاقة الشّائكة سيدتي، لماذا لم يسع "جبران" للسّفر إلى القاهرة للقاء حبيبته وملهمته؟ ولماذا كان أنانيًّا في مشاعره، وتركها تعشقه بلا أملٍ، في حين ظلَّ هو متلذذًا ومستمتعًا بحبّها له؟ هل كان "جبران" يعشقُ الحبَّ أم يعشقُ "ميّ زيادة" ؟**
- **ألا يكفي ما بينهما يا "علاء" من السّهول والجبال والصّحاري والبحار، وما لا يقلُّ عن سبعة آلاف ميل ليحول بينهما ، فكانت الرّسائل الوسيلة المتاحة التي ألّفت**

بين قلبيهما صانعةً نموذجًا من أجمل نماذج الحبِّ الصّوفيّ الحالم ؟

- لا زلتِ على موقفك سيدتي! عشرون سنة! ما أصدق ما قال "كامل الشناوي": " ما أهونَ الدّمع الجسور إذا جرى من عين كاذبة فأنكر وادعى ".

حاولتُ الانفلات من هذا المأزق الذي حاصرني فيه :

- ربّما لأنّها شرقية تتسمُ بالحياء والكبرياء، ولم تعبّر لـ "جبران" عن حبّها، وأخفت مشاعرها بسبب العادات الشّرقية والمجتمع المحافظ الذى عاشت فيه، رغم أسرتها المتفتحة، وتحررها الفكري، مما جعل "جبران" مندهشًا من ترددها وخجلها ؟

وكأنّه يخطو سريعًا من خط النّهاية معلنًا انتصاره :

- أنتِ تراوغين سيدتي .. الحديث عن خيانة "جبران" لا حبّ "ميّ" له.
- إن سلمتُ لك بخيانات "جبران"، فهل تلومُ "ميّ" على حبّها ؟
- قبل أن أجيبك عن سؤالك هل تحبين شَعرك يا "جاسمين"؟

تعجبتُ من السؤال، ولكنّي وجدتني مدفوعةً نحو الإجابة :

- لا توجدُ أنثى لا تعتزُ بشعرها، فهو رمز أنوثتها وجمالها.
- هل تعلمين سيدتي أنّه في إحدى رسائله إليها طلب منها صورة لها، فردت عليه : كيف تتخيلني؟ فقال لها : أتخيّلُ شعرك قصيرًا يلفُّ وجهك، فذهبت "مي" لقصّ شعرها

الطّويل، وأرسلت له رسالة مرفقة بصورةٍ وهي بشعرها القصير، فكتب لها : أرأيتِ كان تخيلي صادقا ؟ فكتبت له : الحبُّ كان صادقًا .

بعفويةٍ لم أسيطر عليها، وجدتني أحدّث نفسي :

- حمقاء .
- دعيني أجبك على سؤالك سيدتي، نعم ألومها..ألومها على صبرها الرّهيب متواريةً خلف الورق والمسافات من أجل البوح بمشاعرها والاعتراف بالشّوق والغرام الذى اعتراها لـ"جبران"، على أمل أن يصرّح لها برغبته في الزّواج منها، ولكنّه لم يفعل، واكتفى بالحبِّ المُعلّق الوهميّ، مفضلاً عدم اللقاء، لتكون حبيبته "ميّ" مجرد ملهمة لخياله لا أكثر.

لا أدري! هل أنا من يقود الجلسة أم هو؟

- تقصد أنّه لم يحبّها؟
- أعلم أنّكِ لن يروق لك رأيي ومذهبي، لكنّه لم يحبّها، لم يسع للزّواج منها، لم يكن لديه المعضلة التي حالت بين "غسان كنفاني" المسيحيّ و"غادة السمّان" المسلمة، سيدتي؛ "جبران" لم يحبّها، بل أحب حريته.
- إذن هي الضّحية في رأيك التي تستحقُّ الشفقة والانحياز لمعسكرها، أنتَ إذن من حزب مناصرة المرأة .

ابتسم مع نظرةٍ في عمق عينيّ كسرت الرّقم القياسيّ لعدد الثّواني الذي حققته النّظرة السّابقة :

- هي ضحيةٌ وجلادٌ في وقتٍ واحدٍ سيدتي .

بدأتُ أفقدُ سيطرتي كأنثى على أعصابي، وأخرجُ عن إطار عملي كمعالجة نفسية :

- وهل لها ضحايا يا "علاء" ؟

ضحك ضحكةً ملؤها السّخرية والخذلان :

- نعم يا "جاسمين" ، ضحاياها كُثُر، أتعلمين؟ لم تستطع "مي زيادة" التي عشقها الجميعُ التّخلي عن حبّها لظلِّ رجلٍ مغتربٍ خلف البحار، أخلصت له مشاعرها قرابة عشرين سنة، ولم تلتقِ به أبدًا، بينما عوّض هو احتياجاته الذّكورية في علاقاته العديدة، وأشبع روحه بعلاقته بـ "مىّ زيادة"، وظلّت تواجه بسببه تأنيبَ ضميرها ومجتمعها لقرارها، أن تصبح راهبةً في محراب عشقه، رافضةً للزّواج، ومحافظةً بقداسةٍ على الأغلال العنيدة التي كبّلت بها نفسها حتى غيّبها الموتُ عن الحياة.

وجدتني كأنثى لا أريد الاستسلام بسهولةٍ، خاصةً فيما يخصُّ كبرياء الأنثى وأنفتها، قلتُ :

- إنّه لم يعترف بحبّها صراحةً !

- نعم سيدتي ، بل وأطالبك أن تذكري اعترافًا مباشرًا بحبّه لها طوال عشرين سنة، لكن قبل أن تبحثي ضعي أمام ناظريك هذا الاعتراف ، : " سأحبّك حتى الأبدية، فقد كنتُ أحبّكِ قبل أن نلتقي كبشريَيْن من لحمٍ ودمٍ بزمنٍ طويلٍ، عرفتُ ذلك حين رأيتك للمرة الأولى، كان ذلك هو القَدَر،

أنتِ وأنا قريبان؛ ففي الجوهر نحن متشابهان، أريدكِ أن تتذكري هذا دائمًا ".

طرتُ فرحًا بهذا الاعتراف :

- ها أنتِ وفّرتَ عليّ عناءَ البحثِ، وذكرتَ الاعترافَ بنفسك.

وهو يعاودُ إطالة النّظر في عينيّ ، لكنّها نظرة الشّفقة يتوارى خلفها لذّةُ الانتصار :

- وهل التقت "ميّ " "جبرانًا"؟ هل رآها ؟ " عرفت ذلك حين رأيتك للمرة الأولى ".

ترنّحتُ من وقع سؤاله ، لكنّه لم يمهلني كي أستعيدَ توازني ، الرسالة لم تكن لـ "ميّ زيادة" بل كانت لـ "ماري هاسكل". ساد الصّمتُ بيننا وحاولت ألّا تقع عيني في عينه مباشرةً، مرارة الهزيمة لم أتذوقها من قبل، حتى قطع هو الصّمت بقراءة عبارة من دفتره : يقول "ميخائيل نعيمة" إنّه لم يكن نبيًا لمجرد أنّه ألف كتاباً أسماه " النّبيّ " وإنّه في واقع الأمر كان متورطًا في ملذاتٍ جسديةٍ وعلاقاتٍ عاطفيةٍ مع عدد من النّساء في أمريكاَ، حدث ذلك في الوقت الذي كان يبعثُ فيه بأرقّ الرّسائل إلى المرأة البريئة "ميّ زيادة".

- سؤالٌ أخير وبعده أقرُّ لك بادعائك ، أن تكون "ميّ" ضحيةً فقد علمتها ، فكيف ألبستها أنتَ لباس الجلادين عديمي الرّحمة والإنسانية ؟

بحماسة منتصرٍ حرّر بلاده من أغلال الغزاة :

- ليست ادعاءات سيدتي ، كما أنّي لم أنزع عنها رقتها وإنسانيتها، كلُّ ما في الأمر أنّها وهبت قلبَها في محراب "جبران" ولم تنتبه لمَن عشقوها حدَّ الثّمالة وعتبات الجنون .
- مثلُ مَن؟
- "أحمد شوقي"،"عباس محمود العقاد" ، " والشّيخ مصطفى عبد الرّازق" ، والشّاعر "ولي الدّين يكن"، وهو الحبُّ الذي جعلهم ينظمون فيها قصائد الشّعر والنّثر، ويكتبون فيها ما لم يكتبه أحدهم في غيرها، حيثُ صالونها الأدبيّ في بيتها كلَّ ثلاثاء.

بافتخار أنثى :

- صالون لمناقشة القضايا الثّقافية والأدبية.

ساخراً من عبارتي :

- أو هكذا يقولون .

وقبل أن أثورَ عليه اعتراضًا على اتهامه بادرني قائلًا :

- يقول "إسماعيل صبري " عن صالونها :

روحي على بعض دور الحي حائمة .
كظامئ الطّير تواقاً إلى الماء .
إن لم أمتع بميّ ناظري غدًا .
لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء .

وهو القائل : " وأستَغفر الله من بُرهَةٍ منَ العُمرِ لم تَلقَني فيكِ صَبّا "

ويقول "أحمد شوقي" : " إذا نطقت صبا عقلي إليها وإن بسمت إليَّ صبا جناني "

ويقول: "عباس العقاد"....

نظرتُ إليه متوسلةً :

- ماذا يفعلون عند توقيع معاهدات الاستسلام ؟

ابتسم ابتسامة من أسقط غريمه بالضّربة القاضية :

- لا أسمّيه استسلامًا بل إخفاقًا في جولةٍ على أملٍ في جولة جديدة تنتصرين فيها .
- أعدك أن الجولة القادمة لي .
- موافق، لكن ما رأيك أن ينضمَّ إلينا اللونُ الأزرقُ في المرّة القادمة.

بنظرة مرهقة بعد معركة طويلة أتت على ثوابت "ميّ " و"جبران" التي طالما آمنت بها :

- ماذا تقصد ؟
- تمنّيتُ أن نجلسَ بجوار البحر، نستمعَ إلى وشوشة أمواجه وأسرار رماله التي تخفي أسرار العاشقين التي يخطونها عليها، لكن ما باليد حيلة، ما رأيك أن نجمع بين زرقة السّماء وزرقة نهر النّيل ليشهدا جولتنا القادمة.

أومأتُ بالموافقة ، تصافحنا بنظرةٍ عاد إليها الخجل من جديد ليحتل مشهدَ الوداع .

من وراء النّافذة

لم أكد أصلُ إلي البيت حتى وجدت صوت "أسامة" يتسللُ نحو غرفتي ، أقسمَ ألّا ينصرف هذه المرّة إلّا وأنا معه، دعاني لمشاهدة مباراة لكرة القدم بين نادي الأهلي المصريّ ونادي الوداد المغربيّ في نهائيّ دوري أبطال إفريقيا، رغم أنّي لا أحبُّ ازدحام المقاهي وجعجعة مجانين الكرة، لكنّي وافقت على غير العادة، رغم ما أعانيه من إرهاق، وكما توقعتُ، القومُ مستغرقون في مناقشة قضية السّاعة، ما بين مشروعية إقامة المباراة في مدينة كازابلانكا بملعب الخصم، وحديثٍ عن تواطؤ الكاف الإفريقيّ ضد فريقنا، وما بين آخرين يلعنون ضعف حيلتنا وهواننا على النّاس، صوتٌ مؤيدٌ وأصواتٌ معارضةٌ تكادُ تفتكُ بهذا النّشاز، ولكن من أين تسلّل هذا النّشاز إلى فوهة البركان ولا يوجد أحدٌ من المغاربة في المقهى؟ إنّه الغريمُ التقليديّ الذي لا يجد حرجًا من تشجيع أي منافسٍ يلعبُ ضد غريمه، ولو كان هذا الطّرف الآخر يلعبُ في تل أبيب ! وكأنّها حالة من الشّيزوفرانيا بامتياز، لا أدري وكأنّ هذا الاستخفاف والتّفاهة التي أحاطت بهؤلاء المتاعيس جعلني أتذكر مقدمة "بن خلدون" حين قال : " الشّعوب المقهورة تسوء أخلاقها، و كلما طال تهميشُ إنسانها يصبح كالبهيمة، لا يهمه سوى اللقمة والغريزة، عِندما تَنهارُ الأَوطان يَكثرُ المُنَجِمون والمُتَسَوّلون والمُنَافِقُون والمُدَّعون والقَوَّالون والمُتَصَعلِكون، وضَارِبوا المَندَل وقَارئوا الكَف والطَالع، والمُتَسَيسون والمَداحُون والإنتِهَازيون، فَيَختَلطُ ما لا يُختَلطُ ، ويَختَلطَ الصِدق بِالكَذب

والجِهاد بِالقَتل، ويَسودُ الرُّعب ويَلوذَ النَّاسُ بِالطَّوائف، ويَعلو صَوتُ البَاطل ويَخفُتُ صَوتُ الحَقّ، وتَشحُّ الأَحلامُ ويَموتُ الأَملُ، وتَزدادُ غُربةُ العَاقل، ويُصبِحُ الانتماءُ إلى القَبيلَةِ أَشَد إلصَاقاً ،وإلى الأَوطان ضَرباً مِن ضَروبِ الهَذَيَان "، وهل هناك قبلية أشدُّ سواداً من قبلية كرة القدم والتّعصب الصّبياني لها ؟

عمدتُ إلى طاولةٍ على أطراف المقهى، جاورني فيها صديقي مضطرًا، فلو كان بيده لالتصق بشاشة التّلفاز التصاقَ طابع البريد بالمرآة، الكلُّ ينتظرُ مباراة حامية الوطيس، وحديث عن مباراة ثأرية بين الفريقين، سرحتُ بخاطري فيما دار بيني وبين "جاسمين" ، وحاولتُ توقع أحداث المباراة القادمة معها، ما تلك الثّقة التي تحدثتُ بها عن اغتنامها للجولة القادمة؟ وهل نحن في حاجة إلى جولات أخرى؟

لم أتحمّل مزيدًا من الفوضى التي عمّت المقهى، والتّوتر الذي على وشك الانفجار، استأذنت من صديقي الذي بالكاد أومأ لي مع ابتسامة بلهاء، فأنا بالكاد على هامش شعوره في تلك اللحظات الفارقة من تاريخ الأمم، عدت إلى البيت وجلستُ أتحدثُ إلى أمّي، لأول مرّة منذ زمنٍ بعيدٍ لا تناقشني في أمور الزّواج والبحثِ عن بنت الحلال، وجدتني مسلوب الإرادة منجذبًا نحوها انجذاب الحديد نحو المغناطيس، واضعًا رأسي في حجرها، لا أدري كم مرّ من الوقت وهي تعبثُ بشعري، فتلملم ملامح طفولتي التي خرجت منذ زمنٍ طويلٍ ولم تعد ، أشفقتُ عليها من ثقل رأسي، وثقل خوفها عليّ، وحرصها أن تطمئن عليّ قبل أن يباغتها الرّحيلُ ، قبّلت يدها ورأسها، لم أر هذه الفرحة على محيا أمّي منذ وقتٍ طويلٍ، ارتميت

على فراشي ملتصقًا بطرفه، تمنيتُ ولأول مرّة ألّا تزورني "عنيزة" هذه الليلة من فرط الإرهاق الذي وقعتُ أسيرًا له، لم أكد أغمض عيني حتى رأيتها تنظرُ نحوي من وراء النّافذة، ابتسمت كعادتها، لكنها لم تنبس ببنت شفة، وكأنّها جاءت الليلة لتنثرَ زهر الطّمأنينة والياسمين، استسلمتُ للنّوم على أمل أن تزورني في أحلامي، فلرّبما أجدُ تفسيرًا لابتسامتها الصّامتة، أو تشي بأسرار الجولة القادمة مع "جاسمين" حيثُ زرقة السّماء وزرقة النّهر العتيق .

لحظاتٌ عابرةٌ

ومع انفلات أيام الأسبوع الثّاني لرحلة لبنان، وفي الليلة الأخيرة جلست "هند" في غرفتها تعيدُ شريطَ لقائها بـ"أنطوني" بالرّوشة، تتخيله واقفًا على باب غرفتها، يحملُ بين يديه طاقة وردٍ تكادُ تخفي وجهَه، وفي يده الأخرى يحملُ خاتمَ الخطوبة، يقتربُ منها، يركعُ عند قدميها، يعتذرُ عن قسوته معها وتعمّده رؤيتَها وكأنّها والعدم سواء، تتعالى عليه مبررةً ذلك باحتياجها بعض الوقت لتفكر في أمر الارتباط به، ينكسرُ أمامها وهو المتغطرسُ الذي لا ينحني لأحدٍ ، تلمحُ دمعة المذلةِ في عينه، تمدُّ إليه يدها، لا يصدقُ نفسه، يبكي من فرط سعادته ، تدعوه للوقوف، يحتضنها، تسمحُ له بوضع الخاتم في إصبعها، هذا الخاتمُ الذي طالما تمنّته، فهو كمصباح علاء الدين الذي يلبّي رغباتها، ويحققُّ لها أحلامها التي كادت "جاسمين" أن تسرقها منها، تفيقُ من أحلام يقظتها، تندفعُ نحو الهاتف، تتصلُ بـ"أنطوني"، تطلبُ منه أن يمرَّ عليها في طريقه كي يوصلها إلى مطار بيروت، يوافقُ بصوتٍ فاترٍ ونبرةٍ أشدَّ برودةٍ من قرية أويمياكون الرّوسية التي تستحي الشّمسُ منها أو تكادُ .

كانت في انتظاره أمام الفندق، تأخّر كعادته، ابتلعت مرارةَ الانتظار، تذكّرت عمرها الذي يتسرّبُ من بين يديها وهي على أمل وصوله إلى محطة قلبها، وهو القطارُ الشّاردُ في كلِّ الدّنيا، يقفُ بكلِّ محطات المدن إلّا محطتها، يُقّبل واحدةً ويحتضنها أمام أعين المارين، يواعد أخرى، ويمنحها الحبَّ، ولو كان عابرًا ينتهي

برحيل سواد الليل ضعيف الذّاكرة، فهو الأمين الذي لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم عما شاهده في غرفات النّوم .

يصلُ أخيراً، تمنّت لو صفعته على وجهه، تشفي غليل السّنوات الطّويلة، فيبكي معتذرًا عمّا تسبّب فيه من جراح قلبها الذي أحبّه حدَّ الجنون، تبتسمُ ، وهي تضعُ حقيبتها بسيارته، لم يخطر بباله حتى أن يفتحَ لها باب السّيارة، كلُّ ما فعله أنه سبّ العاملَ الذي انشغل بإنزال حقائب أخرى، ولم يساعد "هند" في حمل حقيبتها.

سألها عن موعد إقلاع طائرتها، طمأنته أنّ أمامها أكثر من ثلاث ساعاتٍ، ذكّرته بوعده بمشاهدة عشّ الزّوجية الذي حدّثها عنه، حاول الانفلات من رغبتها المُلّحة، لكنّها أصرّت، استدار بسيارته مندفعاً نحو شقته، هالها فخامة المكان والأثاث الفاخر، تجوّلت معه في أركان الشّقة، وصلت إلى الرّكن المخصص للمشروبات الكحولية، عاتبته على بخله، لم يجد مفرًا من أن يحتسي معها كأسين من الخمر، بخبث الأنثى اللعوب طلبت منه أن يرفعها على كرسيّ البار، ارتمت في حضنه، وكأنّها استدعت شيطانه الخامل من أثر سهرات الأمس مع إحدى محظياته ، سألته عن رأيه في عطرها، وذوقها في اختيار ملابسها، أصرت على احتساء المزيد من الخمر، وقبل أن ينصرفا من الشّقة طلبت منه أن تدخلَ غرفة النّوم لتضع لمسة أخيرة من المساحيق على وجهها، مرّ من الوقت أكثر من عشرين دقيقة، نادى عليها ولم تجبه، طرق عليها الباب، ولما طال صمتها اندفع داخل الغرفة ليعنّفها، تفاجأ بها وقد تخفّفت من ملابسها، ونامت على

سريره، سألته :

- لم تخبرني عن رأيك في تناسق ألوان ملابسي !

وكأنّ الخمر لعبت برأسه ، أو أنّ شيطانه زيّنها له، وكأنّها حقّقت حلمًا قديمًا في جذب انتباهه ولو كان الثّمنُ أن تسلم نفسها له، سألته وهي تضمُّ رأسَه إلى صدرها :

- هل تحبّني ؟

اعتدل قليلًا، ثم أشعل سيجارة ونفث الدّخان في وجهها :

- إنّها مجرد لحظات عابرة يا "هند"، مجرد لحظات .

مضى من الوقت قرابة السّاعة، وكان لا بدَّ أن يسارعا بترك الشّقة كي تدركَ طائرتَها قبل الإقلاع، سألته وهي تنتزعُ منه قُبلة أمام مطار بيروت :

- هل ما حدث بيننا اعتبره إعلان خطوبتنا بصورة ضمنية؟

حدّق في عينيها..ثمّ ضحك ضحكةً هستيريةً ثم تركها وانطلق بسيارته .

سرحت بخاطرها وهي في مقعد الطّائرة، أحداث متضاربة، تتذكرُ ما أسماه "أنطوني " بلحظات عابرة، فتضحك وتتحسس أماكن جسدها التي أسلمته له منذ قليل ، ثمّ تتذكرُ أيام طفولتها ودراستها في مدارس الرّاهبات الفرنسسكانيات الإيطالية، ومشاهد تكريم "جاسمين" المعتاد لتفوقها الدّراسي، وعتاب سير "فورجينسا" لإهمالها دراستها وحديثها مع صديقاتها عن حبيبها "أنطوني" الذي تقضي معه عطلة الصّيف في بيروت أو هكذا تزعمُ، ثمّ تتذّكرُ تعلّق "أنطوني" بـ "جاسمين" التي لا تبالي بمحاولاته لجذب

انتباهها، وإهماله المتعمد لها رغم محاولتها الدّائمة لجذب انتباهه ، مشهد آخر أشدُّ سوادً حين تمّ ضبطها وهي تكتبُ خطابًا غراميًا لـ"أنطوني"، وموقفها المشين في مكتب سيستر "بولين"، والتي وبّختها، واحتفظت بالخطاب كمصدر تهديد مباشر إن هي كرّرت تلك الخطيئة، ولم تنس المديرة أن تلومها على عدم تشبهها بزميلتها وجارتها "جاسمين" في سمتها وسلوكها الذي ينالُ رضا الجميع إلّا هي بالطّبع، وأخيرًا..مشهد "أنطوني" وهو ينفثُ الدّخان في وجهها ويذّكرها حين حاولت انتزاع اعترافٍ طالما تمنّته، أن يعترفَ بحبّه لها، ولو لمرةٍ واحدةٍ ، حتى لو كان ثمنها ما تحيا الأنثى وتموتُ من أجل الحفاظ عليه، كان يعي ذلك من نبرة صوتها، لكنّه لم يرحم توسلها، وبلا مبالاة طعنها في قلبها، مجرد لحظات عابرة .. وما بين الضّحك والدّموع والحسرة والتّبرير ونشوة معيبة لا تقوى على معانقة النّهار أفاقت على صوت مضيفة الطّائرة وهي تذّكرُ الرّكاب بشد أحزمة الأمان لاقتراب الطّائرة من الهبوط، بسخرية ولوم...ليتني تخلّيت عن حزام أمان كرسيّ الطّائرة، وارتطمت رأسي بمدرج الطّائرات، وكنتُ حافظت على حزامِ أمانِ عفتي حين هويتُ بكرامتي بأرض المهانة كأرخص امرأةٍ سعت إلى فراش "أنطوني" بلا مقابل، تنظرُ في مرآتها وتطمّئنُ على ثبات المساحيق، تجرجرُ حقيبتها خارجة من الطّائرة غير مبالية بارتطامها بكراسي الطّائرة، وكأنّها تجلدُ ذاتّها على كرامتها التي جرجرتها منذ ساعات بطرقات شقة "أنطوني"، تعدلُ قامتها، تختمُ جوازَ سفرها وتعبرُ بوابة " ادخلوها بسلامٍ آمنين " .

إرادة " لا "

وكأنّها تُساقُ إلى الموت، وافقت "سارّة" أن تحضرَ معي لزيارة "هند" لنطمئن عليها بعد عودتها من رحلتها التي امتدت أسبوعين لبيروت، بسلامٍ باهتٍ ومقابلةٍ باردةٍ قابلتنا "هند"، والتي تغاضت عن مصافحة "سارّة"، اندهشت "سارّة" من المكياج الصّارخ الذي تستخدمه "هند" والإكسسوارات المبالغ فيها التي تظهرها وكأنّها عروسة المولد ، لأول مرة أنتبه لتصرفات "هند"، لطافتها المزيفة التي تُخفي الكثير، تضخيمها لذاتها، غيرتها البلهاء، لم تمهلنا كثيرًا، جلست واضعة ساقاً على توءمها، توجهت بجسدها نحوي متجاهلة "سارّة"، ثم سألتني :

- لديّ رسالة من "أنطوني" إليك يا "جاسمين"، لكن قبل أن أخبرك أودُّ أن أعرف سبب فسخ خطوبتكما .

فاجأتني، وعبثًا حاولت إخفاء ضيقي بسؤلها :

- أظنُّ أنّه لا طائل من وراء ذلك يا "هند ".

حدّقت في عيني :

- هل لديك ما تخجلين من قوله يا صديقتي.

استشهدتُ بمقولة لـ "أحمد خالد توفيق":

- " أنا خجولٌ ولهذا قد أبتلع بعض آرائي وأفضّلُ الصّمتَ، لكن لا توجدُ قوةٌ على الأرض تجعلني أقولُ ما لستُ مقتنعًا به ، أي أنّني قد لا أقولُ كلَّ الحقيقة لكنّني لا أقولُ شيئًا سوى الحقيقة ".

- ولو أخبرتك أنّه لمّحَ لي برغبته في الارتباط بي، وأنّي طلبت منه أن يمهلني وقتًا كي أفكّرَ في العرض .
- هذا يعودُ إليك يا "هند"، هذه حياتك .

وهي تمارسُ تحديقها في عيني منذ بداية حديثنا :

- ولو طالبتك بحقوق الصّداقة هل تبخلين بالمشورة ؟
- لا يا هند، لكن ما قد لا يعجبني قد يروقُ لك، كما أنّني لا أحبُّ أن أرى في عينيك نظرة الاستنكار والاتهام .
- اتهام ! اتهمك بماذا يا صديقتي ؟
- اتهامي أنّني أحاولُ تشويه صورته.
- لكنّي مصمّمة يا "جاسمين" على سماع نصيحتك ، وبعدها لي حقُّ الاختيار، ما أعلمه يا "جاسمين" أنّ المرأة لا تحبُّ الرّجلَ ، هي تحبُّ المشاعرَ والمكاسبَ العاطفية المتحصّلة من خلاله ، وليس هو بذاته، فالطّفلُ يفرحُ بالبائع المتجول ليس حبًّا له ، بل بالشّعور اللذيذِ حين يتناولُ قطعة الحلوى، ولذلك المرأة تبكي على فقدان الرّجل، ليس لذاته، بل لفقدانها المكاسب العاطفية التي كانت تسعدها عبره، المرأةُ تختارُ مَن يهبها السَعادةَ يا "جاسمين".

لم تستطع "سارّة" أن تصمتَ أكثر من ذلك :

- أخبريها يا "جاسمين" ، حتى إذا صارت الأمورُ على غير هواها فلا تلومُ وقتها إلّا نفسَها.
- كنتُ أعاني معه يا "هند" ، حاصرني في خانة التّبرير، جعلني أوقنُ أنّ المشكلة تكمنُ فيّ أنا، صرتُ عصبيةً،

صدّقته ، صدّقتُ أن لديّ حساسية مفرطة، فقدتُ ثقتي بنفسي أو أوشكتُ على ذلك، فقدتُ شعوري بالسّواء، فقدتُ القدرة على أن أعيشَ حياتي بصورة طبيعية، فقدتُ شعوري بالأمان، أصابني التّبلدُ، أهملت أحلامي وأصبحتُ أعاني في إنجاز مهام حياتي اليومية.

اقتربت منّي "سارّة" وأمسكت بيدي :

- أنتِ الآن بخير يا "جاسمين"، أنتِ بخير..

نظرتُ نحوها نظرة ثناء وطمأنينة :

- فعلًا أنا بخير يا "سارّة".

وكأنّها لم تلحظ توتري وضيقي من ذكر هذه التجربة :

- لكنّه كان معي لطيفًا جدًا يا "جاسمين"، يتعاملُ مع الجميع برقيّ وذوقٍ رفيعٍ، ربّما تكونين متسرعة في حكمك عليه!

قاطعتها "سارّة"، هناك أصنافٌ من البشر، واسمحي لي أن أنسبهم مجازًا لبني البشر، صنفٌ يتلذذُ بالتّحقير والتّقليل من الآخرين، ذكيٌّ جدًا في استخدام أدوات النّقد الهدّام، دائمُ التّعليق على أسلوب حياتكِ، ملبسكِ، ومشربكِ، ومأكلكِ، وتصرفاتكِ ، وحصركِ في دائرة النّقص على مدار السّاعة، هل لم تلحظي أيّة علامة من تلك العلامات طيلة الأسبوعين يا " هند "؟

متجاهلةً سؤال "سارّة" :

- تقصدين أنّه آدميٌّ بأخلاق الشياطين ؟

- لا يا "هند"، فلا وجود للخير المطلق ولا الشّرّ المطلق في شخصٍ واحدٍ، لكنّه آذاني، ولم أتحمّل تقلباته المزاجية، تسلطه، فهو لا يسعى إلّا إلى تحقيق مصالحه الخاصة، تارةً يُشعرك أنّكِ أحبَّ النّاس إليه، وتارةً يضعك في خانة العداوة والخصومة بدون أن تكوني قدمتِ له أية إساءة، تارة يقتربُ يسألُ عنكِ وعن أحوالكِ ويهتّمُ بكِ وتارةً يختفي من حياتك بدون مقدمات .

بنبرةٍ باردةٍ، ولا مبالاة :

- أظنُّ كان بإمكانك السّكوت والصّبر عليه، فمثله لا يُعوّض.

لم أتحمّل المزيَد، ارتفعت نبرة صوتي :

- أتدرين أين تكمن المشكلة يا "هند" ؟ هو لم يكتفِ بما تسبب فيه من أذى، إمّا أن يتركني متضررة تمامًا أو أن يجبرني على إخراج أسوأ ما داخلي .
- يجب علينا أن نرحل حالّا يا "جاسمين" ، قالتها "سارّة" دون أدنى اعتبار لـ"هند"، أنتِ بخير صديقتي، قد تحرّرتِ من قيودك .
- نعم تحرّرتُ يا "سارّة" ، أتعلمين متى؟ حين واجهته، حين وضعت مسافة آمنة، حين رفضت تلك الممارسات، حين صرخت وأسمعت كلَّ الدّنيا " لا "، لا أقبل مرةً أخرى يا "سارّة" بتلك التّجاوزات، لن أسمح بتحمّل ما فوق طاقتي وقدرتي، لن أنساق لرغبات مَن يستغلّونني، أنا إنسان لي رغبات واحتياجات من حقّي تلبيتها .

وقبل أن نغادرَ البيت نظرت "هند" نحوي باستخفافٍ :

- ألا تريدين معرفة رسالة "أنطوني" يا صديقتي ؟

بدون أن ألتفت إليها :

- لا يهمّ .

لم تتركني "سارّة" وصمّمت أن تصحبني إلى بيتي :

- طالما أخبرتك أنّني لا أرتاح إليها يا "جاسمين" ، هل لاحظتِ تحديقها المستمر نحوك ؟ هل لاحظتِ تعمدها كسر تواصلها البصريّ معي بشكلٍ متكرّرٍ وإحالة نظرها نحوك أو نحو اتجاهات أخرى؟ هل لاحظتِ طريقة جلستها ؟

ارتميت على أول مقعد قابلني عند عودتنا إلى بيتي :

- ليس لديّ استعدادٌ لتفسير تصرفاتها يا "سارّة" .

بنظرة الواثق من نفسه :

- تحديقها فيكِ يحمل رسالة تهديدٍ لكِ وعدم ارتياح لحديثك عن حبيب القلب "أنطوني" ، وعدم تواصلها البصريّ معي محاولة بائسة لتهميشي لأنّها تعرفُ أنّي أجيُد قراءة سلوكها الذي تحاولُ إخفاء حقيقة مشاعرها من خلفه، حتى طريقة جلوسها تدلُّ على تكبّرها ومحاولة تصدير شعورها بالملل واللامبالاة.
- كل ما أعرفه الآن يا "سارّة" أنّي مرهقة وفي حاجة إلى راحة طويلة، لم أتخيل يومًا أنّها تتعمّدُ التّقليل منّي أو تشويه صورتي، أريدُ أن أنسى يا "سارّة".

- سؤالٌ أخير يا "جاسمين " عن "أنطوني" ، ولن أتحدث عنه مجددًا، هل صار بالنسبة لكِ غريبًا من الغرباء؟
- غرباء ! في ظنّي يا "سارّة" أنّه لم يعد إلى نقطة الصّفر، بل أسوأ من ذلك بكثير، فالغرباءُ لديهم فرصة التّجربة وحقّ الاقتراب، أمّا أمثال هؤلاء فسحقًا لهم، فلا طريقَ يجمعنا بهم ولا حتى أنصاف فرصٍ يستحقونها لمعاودة الاقتراب .
- تذكرين يا "جاسمين" حينما بكينا من مشهد فيلم "حكايات الغريب"، حين نجح أحدهم ـ وهو نكرةٌ وضيعٌ ـ في التّفرقة بين العاشقين، وقبل على نفسه أن يتزوجها وهو يعلمُ كم هي تعشقُ حبيبها، فضلًا عن مدى كراهيتها له ؟
- نعم يا "سارّة" حين اغتصبها بورقة رسمية، وفي ليلة خروجها من براءتها والحكم عليها بالإعدام الذي باركه أسرتها والمجتمع الهمجيّ، في ليلة يسمونها " الدّخلة " لبست له السّواد وصرخت فيه : أكرهك، ولن تتمكن منّي، فأنا له وهو لي، فما كان منه إلا ان مزّق عليها ملابسها واغتصبها... حقير.
- أهٍ يا "جاسمين" كانت كلّما تذكرت مشاهد القهر والمهانة والانكسار تغمضُ عينيها وتبكي في صمتٍ صوته أعلى من هدير الحرب ومعارك الحياة ودويّ المدافع وآلات القتل والدّمار.

- لا يختلفُ يا "سارّة" كثيرًا عن أحد مشاهد فيلم " موعد على العشاء " حين استجمعت شجاعتها وتوسلت إليه أن يحررها ويمنحها تذكرة العودة إلى الحياة، فما كان منه إلّا أن نزع عنها ملابسها وقهرها بساديته، واغتصبها بورقةٍ وضعيةٍ وقع عليها كهنة المجتمع وأراذل النّاس .
- قتل أملها في الحياة يا "جاسمين".
- يا ليتهم رحلوا في صمتٍ يا "سارّة" ، وتركوا لنا شيئًا يستحقُّ أن يتسرّبَ إلينا من خلاله بعضٌ من الودِّ والاحترامِ .
- أخبرتك من قبل يا "جاسمين" ، "أنطوني" و"هند" وجهان لعملةٍ واحدةٍ .

وأنا أنهارُ أمام سلطان النّوم :

- لا أتذّكرُ يا "سارّة" .
- يبدو أن ذاكرتك ذاكرة سمكة يا "جاسمين"، أخبرتك من قبل أنّها لا تقبلُ مُشاركة الأشخاص في حياتهم مع أحد آخر أبداً، تعاني من حبِّ التّملك المرضيّ وحبّ الظّهور.
- لا زلت أنبهرُ بكِ كل يوم يا "سارّة"، من أين لك بهذه الفتوحات ؟

وهي تغلقُ الباب وراءها :

- واصلي سخريتك يا "جاسمين"، إنّه علمٌ يا محدودة الأفق ، لأنّها ببساطة هي وحبيب قلبها ينتميان لبرج العقرب ويحملان أسوأ ما فيه، عليكِ الآن أن تطرحي كلَّ هذا وراء ظهرك وترتاحي .

شكرتها على مشاعرها النبيلة وخوفها عليّ :

- **الحمد لله أنكِ في حياتي يا "سارّة ".**

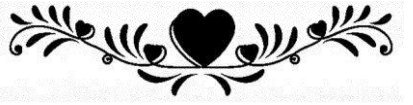

ما بيننا يفوق الحبَّ

في موعدنا المتّفق عليه، حيث زرقة السّماء وزرقة النّيل العظيم بإحدى الأماكن الهادئة والقريبة من مكتبة مصر العامة التقيتها حيثُ دورها لردِّ هزيمتها السّاحقة حين خسرت كلَّ أحجار رقعتها قطعةً تلو القطعة إلى أن رفعت رايات الاستّسلام بدون قيدٍ أو شرطٍ ، جلست بسمتها الهادئ ورقتها التي لا تسطيعُ أن تتجاوزها عينٌ ، وجمالها السّاحر حين اختلطت أرضُ مصر بسحر العرق الأرمينيّ، فكان النتاج الحتميّ "جاسمين" ، لم تمهلني كثيرًا وكأنّها جاءت لتثأر لهزيمتها السّاحقة .

- أهلًا بك شاعرَنا الكبيرَ، لم أتخيل يومًا ما أنّك بهذا الحسّ المرهف واللغة الرّشيقة التي تأسرُ قلوبَ قارئيها قبل أن تجذبَ عقولّهم .

فاجأتني بعبارتها الرّقيقة ، وحاولتُ أن أستفزها :

- أشكرُ لكِ إطراءك المبالغ فيه، لكن هذا لن يشفع لكِ اليوم، فأنتِ في حاجةٍ لإثبات أنّ هناك من قصص الحبِّ ما صدقت وثبتت وتخطّت كلَّ الصّعاب والمستحيلات .

ضحكت ضحكةً فاتنةً أظنّها مقدمة أنثوية لتوّثر على الخصم وتنالَ منه :

- اليوم لن أرد لك الصّاح صاعًا بل صاعين يا عزيزي، لديّ قصتان من عيون قصص الحبِّ النّقيّ الذي حارب الدّنيا بأسرها، وتغلّب على كلِّ المستحيلات، أو كما روّج الوهمُ لهم، فلا مستحيل مع الحبِّ يا "علاء".

بابتسامةٍ ماكرةٍ :

- ما شاء الله ، قصتان مرة واحدة ! لو نجحتِ في إثبات دعواك فسوف أقرُّ لك بالهزيمة مرتين .
- لا يكفي يا عزيزي، وأمرٌ ثالثٌ.

بدأت ابتسامتي في الخفوت :

- ثالث !
- تُقرّ أن الدّنيا ما زالت بخير، وأنّ هناك بين بنات حواء مَن تصونُ الوعدَ وتخلصُ في حبّها، ولا تنجرفُ وراء الماديات وبريق المال والذّهب .

بترددٍ بالغٍ "

- اتفقنا .
- اسمح لي أن أغزو أرضك بسلاحك الذي تجيده .. يقول : لها حبيبها :

أنتِ جميلة كوطنٍ محرر .
وأنا متعبٌ كوطنٍ محتل .
أنتِ حزينة كمخذول يقاوم .
وأنا مستنهض كحربٍ وشيكة .
أنتِ مشتهاة كتوقف الغارة .
وأنا مخلوع القلب كالباحث بين الأنقاض .

نظرتُ إلى عينيها العميقتين :

- يبدو أنكِ أحسنتِ الاختيار، " مريد البرغوثي" و"رضوى عاشور" .. أظنُّ أنّ زواجهما استمر خمسة وأربعين عامًا حتى وفاتها .

- ولماذا لا تقل : قصة حبّهما التي أشرقت تحت سماء الحبِّ ومظلة التّضحيات ؟

تشبثتُ بأحجار رقعتي أتحسسها :

- عليكِ البينة إذن .

بدأت في سرد أدلة دفاعها، أو لو شئنا أن نقول : براهين الهجوم .. كانت أول نظرة على سلم جامعة القاهرة، حيث كان يلقى على أصدقائه أحد قصائده، فانتبهت له وشعرت بكلماته تخترقها، حيث إنّها كانت تكتبُ الشّعرَ أيامها.

- لكنّ ما أعلمه يا "جاسمين" أنّها روائية من الطراز الرّفيع، يكفيها أن تتربع عوالم الرّواية بثلاثية غرناطة والطّنطورية.

بابتسامتها التي يبدو أنّها ستظلُّ أحد أسلحتها الخفية :

- وهذا أول علامة على سقوطها في الإعجاب به، ما أن سمعت قصائد "مريد" ، تركت الشّعرَ، لأنّ الشّعرَ أحقُّ بأهله وذويه ، علي حد تعبيرها .
- نعم، أقرُّ لكِ، قرأتُ له قصيدة فيها أسماها : "رضوي" أقرّ لكِ أنّنا قرأنا في الشّعر القديم قصائد غزل لكنّنا لم نقرأ قصائدَ حبِّ.
- وهنا تبدأ أول الصعاب يا "علاء" ، رفض أهلها ارتباطها بالشّاب الفلسطينيّ ، لتسقط كلمة " لا " الحاسمة والقوية من والدها المحافظ حينما التقى الشّابَ، ووجد بداخله كلَّ هذا الحبَّ والمسئولية تجاه ابنته الصّغيرة،

ليقولّ "مريد" في ذلك : " طوال عمري منذُ أن تعرفنا وإلى الأبد لم أشعر بأيّ لومٍ أو عتبٍ علي موقفهم تجاهي".

بدأ القلق يعتريني، فلم أضع في ذهني أنّي سأخسرُ هذه الجولة، حاولتُ إفساد أدواتها، دعينا نسلّم بأنّه تجاوز أول عقبة ، فماذا عنها ؟

ما زالت مصممة على التّوغل في أعماقي بنظرتها الغامض:

- ولماذا لا تقل أنّهما تجاوزاها معا ؟
- وليكن يا "جاسمين" لكن لا يغرك حماس البدايات .
- لم يكن مجرد حبٍّ يا "علاء" ، بحبّها لمريد اتسع قلبها ليحتوي العالم من حولها، ويضمَّ قضيته التي أصبحت بعد ذلك جزءً من قوامها، وأصبح قلبها وطنه بعد الشّتات.
- لكن لا أظنُّ يا "جاسمين" أن موافقة والدها على زواجهما يُعد المستحيلَ الذي يستحقُّ أن نطيرَ فرحًا بتخطيهما له !

نظرت نحوي حتى التقت عيوننا مباشرةً :

- مَن قال لكَ ذلك ؟ مرّت علاقة "رضوى" و"مريد" بعددٍ من المراحل والمواقف الهامة ، لعلّ كان أبرزها وأصعبها على كليهما حينما أُبعِد "البرغوثي" عن مصر في فترة حكم السّادات بسبب اعتراضه على زيارته إلى إسرائيل، وظلّ ممنوعًا من دخول مصر لمدة سبع عشرة سنة، وهو ما أحدث تشتتًا كبيرًا لأسرتها، ولم تملّ برغم البعد والصّعوبات بل ظلت متماسكة من أجله،"عودي يا

ضحكاتها عودي" هكذا كان يقولُ "مريد" دائمًا حين كان يخطفُ المرضُ ضحكة عزيزته "رضوى"، فكانت تحاربُ بكلِّ طاقتها ورم في الدّماغ .

لم أستطع إخفاء دمعة متوترة على أوتار عودٍ عربيّ عاني التّجاهل والإهمال :

- لكنّي أظنّها سقطت في النّهاية وغيّبها الموت.
- هل تعلم يا "علاء" أنّها كلّما سُئلت عن قصة حبّها طيلة زواجٍ وحبٍّ قارب النّصف قرنٍ من الزّمان أتعلم أنّها كانت تشعرُ بالخجل دائمًا، فتتورد وجنتاها وتعجزُ عن الكلام وتحاول أن تخفي خجلها الواضح بابتسامة رقيقة كأنّها ما زالت تلك الفتاة العشرينية التي وقعت في حب زميلها في الجامعة ؟
- لأنّه حبٌ صادقٌ يا "جاسمين" ... ما الذي أقوله ؟ يبدو أنّني خسرت عدة نقاط حاسمة في معركتي معها ، لم تحاول إظهار تقدّمها نحو منصة النّصر :
- "لا يمكن أن يكون الحبُّ أعمى لأنّه هو الذي يجعلنا نبصر".
- أقرُّ لك يا "جاسمين" ، فرغم رحيلها لن يستطيع الموت أن يفرق بينها وبين رفيق حياتها الدّائم، وشريك دربها الطّويل بكلِّ ما مرّ عليهما من أفراحٍ و أحزانٍ وصعوباتٍ واجهوها معًا، لتطلَّ بابتسامة واسعة على رجالها "مريد " و"تميم" سعيدة فخورة بهما، فحين أن تلتقي الأرواح لا يستطيعُ أحدٌ أن يفرّقها.

- ألا يكفي هذا الحبُّ أن أثمر الثّائرَ الحرَّ والشّاعرّ "تميم البرغوثيّ" الذي وحّد القضية الفلسطينية بتراب مصر من خلال شاعرٍ حرٍّ يدافعُ عن قضية بلاده ؟
- نعم يا "جسامين"، فمن شابه أباه فما ظلم، دعيني أقول لكِ شيئًا، لن أتعبك كما فعلتِ أنتِ المرة السابقة، أقرُّ لكِ بالهزيمة .

بصوتها العذبِ حيثُ سلاحٌ آخرُ يُعجّلُ بالهزيمة :

- لا تتعجل، ربّما أفشلُ في القصّة التّالية ، فتظل أنتَ الملك المتوج على عرش الانتصار.

وكأنّي أستردُّ الأملَ الذي انتزعته منّي، عندك حقّ، دعينا نعيد ترتيب رقعة الشّطرنج وأسترد جنودي الذين غرقوا في بحرك يا "جاسمين" .

- لا تكفي الجنود يا "علاء"، لا بدَّ من أن أُسمِعك " كش ملك".
- لن أسمعها يا "جاسمين" ، هاتي ما عندك .
- يقول فيها : " بدونك أشعر أنّي أعمى حقاً ، أما وأنا معك، فإنّني أتوصّل إلى الشّعور بكلِّ شيءٍ، وإلى أن أمتزجَ بكلِّ الأشياء التي تحيطُ بي"

بهذه السرعة ! يتطايرُ أولُ جنودي من على رقعة الشّطرنج !

- هذه العبارة لـ "طه حسين" و "سوزان بريسو ".
- أظنُّ أنّه يُعدّ شخصية ملهمة لكَ يا "علاء" .

أشحت بيدي:

- لا، فهناك نقاطٌ حمراءُ كثيرةٌ تحيطُ بحياته، وطريقته التي ورثها عن معلمه المستشرق "مرجليوث"، ومذهبه في التّشكيك في الشّعر الجاهليّ، فضلًا عن اتهاماته نحو السُّنّة، ودخوله في صراعاتٍ داميةٍ مع الأزهر الشّريف.

وهي تمزجُ السلاحين الفتاكين اللذين تجيدهما باحترافية عالية:

- دعنا من هذه الصّراعات وليكن حديثنا عن سوزان .

اعتذرتُ لها عن حدّة صوتي، وحاولت استرداد هدوئي ورسم ابتسامةٍ لا شك أنّها لا تشبه بأية صورة من الصّور سلاح "جاسمين" ..اعتدلت في جلستها وكأنّها تستعدُ لهجمةٍ شرسةٍ لتسارعَ بالجولة نحو الضّربة القاضية.

- إليكَ يا سيدي تلك القصّة التي تنفي وهم الحبِّ المستحيل، وأنّ القلوب إذا عشقت وأخلصت فعلت ما لا يقبله منطقٌ ولا تصدقه عقولٌ، وذلك لأنّ القلوبَ أرحبُ وأوسعُ منها برحابة الكون واتساعه، لا بضيق العقول التي يحكمها المجتمع والعادات البالية والتّقاليد المتحجرة .

لا أدري ! وكأنّ كلماتها نكأت جراحًا قديمة حاولت إلقائها في جبِّ اللاوعي، ولكنّها ها هي تطفحُ على السّطح من جديدٍ، ما الذي اقترفته كي تكونَ هذه قصّةَ حبّي ؟ لماذا خانت كل عهودنا، وسارعت نحو بريق الدّنيا اللعين ؟ لم تمهلني ولو لأستجمع بعضًا من شجاعتي وأستردّ رسائلي التي تسطرُ هذا الحبَّ الغبيّ الذي زرعته في قيعان البحر الميت كموت قلبها

وظلمة عينيها التي لا ترحمُ ولا تلينُ .. أفقت على صوت "جاسمين" وهي تنادي عليّ :

- معذرةً يا "جاسمين" .
- هي قصّةُ حبٍّ يا "علاء" من القصص التي لا يصدّقها البعضُ ، فالحبُّ يحدثُ من أول نظرةٍ ولكن ما بالك بمَن لا يرى؟
- نعم يا "جاسمين" ، قرأتُ لها كتابها "معك" بعد رحيل زوجها، أتذكّرُ منه : " أول مرّةٍ التقينا فيها كانت في 1915، في مونبلييه، ومنذ زواجنا كنّا نحتفظُ لهذا اليوم بوضعٍ خاصٍ، لم يكن ثمّة شيءٌ في ذلك اليوم ينبئني بأنّ مصيري كان يتقررُ، ولم يكن بوسع أمّي التي كانت بصحبتي أن تتصوّرَ أمرًا مماثلًا، وكنتُ على شيءٍ من الحَيْرة، إذ لم يسبق لي في حياتي أن كلّمت أعمى".

وكأنّها التقطت خيطًا رفيعًا طار في الفضاء حتى شَكَّلَ عبارة:

- ها أنت على مشارف الهزيمة الثانية .

لم تدع الفرصة واستكملت حَبْكَ قصتها، أو لنقل أدلتها، أحبّها وتقّدم لطلب يدها للزّواج، ولكنّه فوجئ برفض أهلها رفضًا قاطعًا، فكيف لابنتهم الأوربية الفرنسية المسيحية الجميلة أن تتزوج بشاب إفريقيّ عربيّ مسلم وأعمى؟ الغباءُ نفسه الذي يسيطرُ على معتقدات وعادات العرب يطلُّ بوجهه القبيح ولكنّه هذه المرّة من المجتمعات الغربية.

- حياة استمرت أكثر من 50 عامًا يا "جاسمين" ، أحسنتِ اختيار أرض المعركة.

ابتسمت وهي تواصل إحكام خيوطها :

- " سوزان" اختصرت كلامك في جملة خلّدها ديوان العشق حين قالت : "ما بيننا يفوق الحبُّ ".

آهٍ يا "جاسمين"، ليت التي خانت ميثاق حبّي تدركُ هذه الجملة، ليتها ! ، أفقتُ بسرعةٍ من غفوتي على صوت "جاسمين" وهي تستشهدُ بعبارة كتبها "سوزان" في بداية كتابها: " أريدُ أن أخلّدَ للذكرى مستعيدةً ذلك الحنان الهائل الذي لا يعوض"، "سوزان" التي قرأت إعلانًا في جريدة محلية أنّ طالبًا شابًا أجنبيًا أعمى يحتاجُ قارئًا، ثمّ تلتقيه لتنطلق قصّة بدأتها بترددٍ استحال إلى يقين، جعلها تغادر بلادها وحياتها لأجله، عن لحظة اللقاء تقول : " لم يكن ثمّة شيءٌ في ذلك اليوم ينبئني بأنّ مصيري كان يتقرر، ولم يكن بوسع أمي التي كانت بصحبتي أن تتصّور أمراً مماثلاً ".

في محاولةٍ وقحةٍ عبّرتُ عن ضيقي بسبب تذكري لجراحتي التي لا تبدو أنّها تريدُ الاندمال والاختفاء :

- أفهمُ من كلامك يا "جاسمين" وأنتِ المَسيحيةُ الإنجيلية ذات الأصول الأرمينية قد تسمحي بقصّة حبٍّ مع مَن يخالفك في عقيدتك وطائفتك، فضلاً عن قبول الزّواج منه؟

وكأنّي نلتُ مأربي، فقد بدا عليها التّوتر، فهي من النّوعية التي لا تجيدُ الكذبَ وتزييف الحقائق :

- دعني أنهي القصّة ثمّ أخبرك عن رأيي .

بنبرة العائد من دروب الهزيمة على حافة النّصر المبين :

- لكِ هذا ولكن ثقي أنّك مدانة بالإجابة .

حاولت أن تستجمعَ شجاعتها مرةً أخرى فعادت للقراءة، " يستحيلُ عليّ القيام بشيء آخر غير التّفكير بك، ولا أستطيعُ أن أمنعَ نفسي من البكاء كلّما دخلت الغرفة، لقد استحالت الغرف معابد، وعليَّ أن أزورها كلَّ يوم، ألمس الأشياء وأنثر القبلات هنا وهناك ".

تذكّرتُ شيئًا كتبته في دفتري عن معاناة "طه حسين" فأردت أن أُشَغِّبَ به على "جاسمين" كي أضيّقَ عليها الخناق ، فقرّرت أن أنصب لها الشَركَ ، ثمّ أفعل ما فعلته في انتصاري السّابق .

- دعيني أؤيدك أنّهما عانا أشدَّ المعاناة، أعلمُ أنّه اصطدم بالمفتي الأكبر حين عاتبه : لماذا تزوّجت فرنسية؟ لو كنتُ حراً لاشترعت قانوناً ينفي كلَّ مصريّ يتزوج من أجنبية. متعجبةٌ من هذا الموقف المتسلّط .

- وماذا كان ردّه.

- سخر منه قائلًا : أرجوك يا سيدي اشترع هذا القانون، فإنّي أستعجلُ ألّا أستمع إلى مثل هذا الكلام !

ابتسمتْ :

- له الحقُّ أن يدافعَ عن حريته .

حدّثتُ نفسي، ها هي أول ثمار الشَرك الذي نصبته لها :

- لكنّه استمرّ في هجومه يا "جاسمين"، " لكنّي بعد كلِّ شيءٍ يا "د.طه" أودُّ فهم الأسباب الحقيقية التي حملتك على الزّواج من أجنبية..فأنت مصريٌّ طيبٌ، ووطنيّ طيبٌ عظيمُ الذّكاء..فكيف أقدمت على هذا العمل؟! "
- "طه حسين": قابلت فتاة، وأحببتها، فتزوجتها، ولو لم أفعل لبقيت عازباً أو لتزوجت ـ نفاقاً، بما أنّني أحبُّ امرأة أخرى- امرأة مصرية، وكنتُ سأجعلُ منها امرأة تعسة!
- المفتي: هذا أمرٌ لا أستطيعُ تصورَه !
- "طه حسين": هذا أمرٌ لن تستطيعَ تصوره دومًا يا فضيلة الشّيخ، فنحن لا ننظر إلى الأشياء بالطّريقة نفسها أبدًا .

بدا عليها الأسف لهذه الأحكام الجائرة، ثمّ عادت لتكملَ أدلتها:

- لقد أحبّها حبًّا لا يتصوره عقلٌ يا "علاء"، كتب لها بعدما سافرت لعَرَضٍ ما وافترقا.. "هل أعمل؟ ولكن كيف أعمل دون صوتك الذي يشجعني وينصحني، دون حضورك الذي يقويني؟! ولمَن أستطيعُ أن أبوحَ بما في نفسي بحرية ؟! ستقولين لي : عليك أن تكتب لي، لكنّك تعلمين جيدًا أنّ الكتابةَ غير التّحدث ، وأنّ قراءة الرّسالة ليست هي الاستماع إلى صوتٍ ، ثمّ إنّكِ تعلمين جيدًا أنّني كثيرًا لا أقولُ شيئًا وإنّما أتناولُ يدك وأضع رأسي على كتفك ".

قرّرتُ أن أتظاهرَ بمعالم الهزيمة كي أعود إلى سؤالي الذي تهرّبت هي منه.

- أقرُّ لكِ بالهزيمة الثّانية، لا يمكنني بمكانٍ أن أتجاهل معاناته في بعدها وهو يتأمّلُ رسائلَها التي تنقطعُ لفترة

فيكتب : " تغمرني ظلمة بغيضة .. آهٍ ما أقسى أن يكون المرء وحيدًا، بعيدًا عن حياته !

رغم اعترافي بهزيمتي إلّا أنّها لم تهش بنصرها :

- لم يكن الأمرُ سهلًا يا "علاء"، تقولُ "سوزان" عن رحيله عنها : " من المستحيل عليّ أن أستندَ على ذراعه، وقد انهار الصّمتُ الحاسمُ يا صغيري الذي لن أعثر عليه أبدًا إذا ما دفعتُ بابًا ما، نعم، سيكونُ ثمّة بابٌ آخر يومًا ما، فهل ستكونُ وراءه كي تستقبلني؟ "

كم أنت رِقيقة يا "جاسمين"، لم أتخيل أنّ هذا الوقارَ وحديثك على قدر الحاجة والسؤال، حين تعرفت إليكِ في مكتبة مصر، لم أتخيل أن يكون هذا الوجه الصّامت ذو الملامح الصّارمة أنّه يخفي وراءه كلَّ هذه الرّقة وفرط العذوبة والدّلال ! حاولتُ التخفّيفَ عنها :

- لكنّه كتب لها قبل موته : " ابقي، لا تذهبي، سواء خرجت أو لم أخرج، أحملك فيّ، أحبذك، ابقي، أحبّك، لن أقول وداعًا ، فأنا أملكك، وسأملكك دومًا ، ابقي يا حبّي"..

وكأنّ كلماتي خفّفت عنها، وبكلِّ شجاعة نظرت نحوي:

- لم أنس سؤالك، ولا أخفيك سرًا ما توقعت أن أقع في فخه ، لم أتخيل حتى اللحظة على الأقل أن أرتبط بَمن يخالفني معتقدي، لستُ بحاجة لخوض معارك شرسة مع مجتمع يحكمه فلسفة القطيع، لا أحبُّ أن أعاني مرّةً أخرى.

تجمّدتُ أمام كلمتها " لا أحبُّ أن أعاني مرّة أخرى " وكأنّها تدفعُ بي نحو أتون آلامي، تعانين ! هل تجربتك سيئة لدرجة

أنّها أخفت ابتسامتك التي لم تغادر محياك منذ بداية لقائنا وتجعلك تبكين يا "جاسمين "؟

لملمت أوراق انتصارها :

- أرجوك يا "علاء" ، وهي تجفّفُ دموعها ، لندع هذا الأمر الآن ، لا بد أن نحتفل بانتصاري عليك ، كيف ستُعبّر عن هزيمتك ؟

ابتسمتُ وأنا أتمنّى أن أجفّفَ دموعَها وأعتذرَ عن طريقتي التي أبكتها :

- لنجعلها مفاجأة الغدّ بالمكتبة يا "جاسمين".
- ليكن يا "علاء".

لأول مرّة منذُ زمنٍ طويلٍ أتمنّى أن يطولَ الوقتُ معها - بعد فاجعتي السّابقة -، لعلّي أعتذرُ لها عمّا بدر منّي، ولكن لا مناص، ودّعتها على وعدٍ بلقاء الغد، وانصرف كلٌ منّا في طريقٍ .

الحبُّ كالعمرِ

(لنجعلها مفاجأة الغدّ بالمكتبة يا "جاسمين") ، سرحتُ بخاطري في كلمته، يا تُرى أية مفاجأة يعدها "علاء" ؟ قصة جديدة من ديوان العاشقين يثبتُ بها أنّ الحبَّ وهمٌ كبيٌر، أو أنّنا تعرضنا لعملية تزييف كبيرة، فانجرفنا وراء عاطفتنا، رغم أنّي مررتُ بتجربةٍ سيئةٍ كادت تعصفُ بأركاني، إلاّ أنّني لم أفقد الأمل كما يفعلُ هو، لكن أن يطمئنَ لي، ويفتحَ حجرات قلبه المغلقة، يسمحَ لي أن أفتحها وأفتشَ فيها، حتى أجدَ تفسيرًا لما يعانيه، ومساعدته ليعودَ إلى الحياة من جديدٍ.

- **أهلًا وسهلًا يا ستَّ النّساء، تأخرتِ دقيقتين عن موعدك يا "جاسمين" .**
- **صباحُ الخير يا "سارّة" ، ستَّ النّساء ! غزلٌ أم سخريةٌ يا مَن عوّض اللهُ قصرَك بطول لسانك !**
- **لا هذا ولا تلك، اسألي ذكر برج السّرطان.**

حدّقت النّظرّ فيها :

- **لا داعي للألغاز يا "سارّة" .**
- **انظري نحو مكتبك، ما رأيكِ في طاقة الورد وعلبة الشّكولاتة التي بجوارها ؟**

سارعتُ نحو مكتبي، انتزعتُ الورقة الملصقة بطاقة الورد، انتصارٌ رائعٌ يا ستَّ النّساء، توقيع : المهزوم بأسلحتك التي لا تُرحم ؛ عذوبةُ صوتك وفتنة عينيك .

وقعت الكلمات عليّ كالصّاعقة، هذا ما لم أضعه في الحسبان

، ثمّ كيف عرف أنّي أحبُّ زهور التّوليب البنفسجية وتلك النّوعية من الشّكولاتة ؟ ثمّ لماذا لم يحضر اليوم ؟ يهتزُّ هاتفي ، يبدو أنّه أرسل لي شيئًا عبر تطبيق الواتس آب. اندفعت "سارّة" لتشاهدَ الرّسالة بمحاولة صبيانية لنزع الهاتف من يدي .

- اصبري وسوف أقرأ عليك يا "سارّة" .

معذبتي
أحقٌ أنتِ سامعةٌ
أنينَ هوايا من ألمي ؟!
معذبتي
ظننتُ البعدَ يشفيني
فزاد الشوقُ من ندمي
معذبتي
قوليها : هواكَ يملكني
لعلي أعودُ من عدمِ
قوليها ؛ " حبيبي " تحييني
لعل جراحي تلتئمِ
أنيري الدّربَ غاليتي
كرهتُ العيشَ في الظُلَمِ

ضربتُ بعنفٍ بيدي على مكتبي، هذا ما لم يكن في الحسبان .

- ما الذي أصابك يا "جاسمين "؟ بدلًا من أن تفرحي أنّكِ قطعتِ شوطًا كبيرًا في علاجه وإخراجه من حالته التي عجزنا عن تفسيرها، ألا يسعدك الابتسامة التي عادت لأمّه

وهي تستردُّ ابنَها بعد أن وقع أسيرًا لدائرة أحزانه وتجربته الفاشلة ؟

- لا يا "سارّة" ، لقد أكد عليّ "د.صبري" أن أكونَ حذرة في خطة علاج "علاء" ، حذّرني ألّا يقعَ المريضُ في حبِّ معالجه .

قاطعتني "سارّة":

- لماذا تفسّريها هكذا يا "جاسمين"؟ لماذا تلك المسميات ؟ مريض ومعالجة !

بنبرةٍ متوترةٍ تحمل قلقي البالغ :

- ماذا تقصدين يا "سارّة" ؟
- ما أقصده أنّه لا مانع من أن يجدَ كلٌ منكما ضالته في الآخر، كلاكما مرّ بتجربةٍ مريرةٍ نالت منكما الكثير.
- لا يا "سارّة" ، هو لا يحبّني، أنا بالنسبة له أول طوق نجاة وجده لينتشله من بحور أحزانه وتجربته السابقة...

عضضتُ على شفتي، الآن فهمت .

بدأت "سارّة" تشفق عليّ محاولة إعادتي إلى هدوئي :

- ما الذي تذكرتيه يا "جاسمين" ؟
- سألني سؤلاً لم أستوعب أنّه يقصدُ شيئًا آخر من وراءه.. سألني : هل تقبلين وأنت المسيحية الإنجيلية ذات الأصول الأرمينية بقصة حبٍ مع مَن يخالفك في عقيدتك وطائفتك، فضلًا عن قبول الزّواج منه؟ "
- وماذا كان ردك يا "جاسمين" ؟

- أخبرته أنّي لستُ بحاجةٍ لخوض معارك شرسة مع مجتمع يحكمه فلسفة القطيع، وأنّني لا أحبُّ أن أعاني مرةً أخرى.
- لا أتفقُ معكِ يا "جاسمين"، ما المانع أن يكونَ مَن يحبّك ويعوّضك عمّا فاتك مخالفًا لكِ في معتقدك ؟ لماذا هذه النّظرة القاصرة التي تقتلُ أجملَ ما فينا وتتركنا عبيدًا للعادات والتّقاليد الغبية ؟
- لا يا "سارّة"، لا يكفي أبدًا في الحبِّ حماسُ البداياتِ والانبهارِ بالمظاهرِ الخارجيةِ، لا يكفي أبدًا أن نطمئنَ لوعودِ أولِ القصّةِ، ونظنّ أنّها كفيلةٌ أن تقودَ السّفينةَ لبرِّ النّهاياتِ السّعيدةِ والأحلامِ الورديةِ التي يعيشها أيّ شريكين...
- لم أطالبك يا "جاسمين" أن تُلقي بنفسك في أتون الحبِّ دون وعيٍ ولا بصيرةٍ، لن تخسري شيئًا، لا تتخذي هذه الخطوة حتى تتيقّني من صدق حبّه واهتمامه وترجمة ذلك الحبِّ ترجمةً احترافيةً على أرضِ الواقعِ.
- يا "سارّة" ، كلُّ البداياتِ جميلةٌ، وكلُّ المحبين لديهم القدرةُ على الكلامِ والإفراطِ في الوعودِ، لكن عندما ترتفعُ الأمواجُ، وتشتدّ العواصف، هنا فقط يثبتُ الحبُّ الحقيقيُّ، وأركانه ترتكزُ في أعماقِ الاستمرارِ، حيث يكونُ لديها القدرةُ على مواجهةِ عواملَ التّعريةِ والخرابِ.

بطريقتها في محاولة إقناعي بوجهة نظرها، بعيدًا عن مسألة المريض والمعالج التي لا أراها قرآنا أو عهداً مُقدَّسًا يلزمنا

التّمسك به .

- ما المانعَ أن تنظري إليه كعاشقٍ صادقٍ في عشقه، وجد فيكِ ضالته؟
- يا "سارّة"، الخطورةُ حين يمرُّ عليكِ في حياتك شخصٌ ما تمثلين له كلَّ شيءٍ في حياته ومحورَ تفكيره واهتمامه والأولويةَ الأولى لديه، يراكِ كلَّ جميلٍ أرسله اللهُ إليه، عاملاً مباشراً في جلبِ أسبابِ سعادته وفرحته، مرروك بخاطره يسبّبُ له حالةً فرديةً من السّعادةِ والنّشوى والطّاقةِ الإيجابيةِ، هذا على فرضيةِ أنّكِ تغادرين تفكيره من الأساسِ، حتى يصلَ به الأمرُ يا "سارّة" أن يتعلّقَ بكِ، فإذا ضاقت به الدّنيا وتلاعبت به أعاصيرُها يسارعُ فيكِ ويحتمي بكِ، يراكِ المأوى والملجأَ والملاذَ بعد ملاذِ السّماءِ.
- لا أختلفُ معكِ يا "جاسمين"، وهذا ما أراها في حالته، فقد تعلّق بكِ لجمال روحك ورقيك في معاملته.

بعصبيةٍ بالغةٍ لم أتعوّد عليها :

- لا يا "سارّة" ، لن أخونَ ميثاقَ العمل .

قامت من كرسيّها لتعودَ إلى مكتبها :

- هذا حقّكِ يا "جاسمين" ، ولكن تذكّري أنّكِ أنتِ مَن خاطرتِ وقرّرتِ دخولَ مغامرة غير محسوبة العاقبة، فلا تلومي تعلّقه بكِ، وتذكّري أنّ رفضك له سيُعقّد حالته ويجعل الشّفاءَ مُحالًا لا أملَ فيه، ثمّ تذكّري أمَّه التي وثقت بكِ وأفضت إليكِ بأسرار ابنها.

قاطعتها :

لكنّي لم أعدها أن أجعله يحبّني يا "سارّة".

- **اسمعي يا "جاسمين"، تعلمين أنّي أجيدُ قراءة الأشخاص وترجمة ما أراه من لغة أجسادهم، وليست "هند" عنكِ ببعيدة، هو يحبّك فعلًا، وثقي أنّه ليس كما تتصورين مريضًا يحتاجُ إلى علاجك، هو يبحثُ عن حبٍّ مثاليٍّ، ومَن ينعتها " عنيزة" ما هي إلا رمزٌ خياليٌّ يبحثُ له عن جسدٍ وروحٍ يستقرُّ فيهما هذا الرّمزُ الحائرُ .**
- **لكنّي يا "سارّة" ....**
- **اسمعيني ولو لمرةٍ واحدةٍ يا "جاسمين" ، لقد رأي فيكِ أنّكِ أنتِ الوحيدة من بين سائرِ البشرِ القادرة على استيعابه واحتواءه في شدّته ومحنته، تعرّى أمامك، ولم يخجل من إظهارِ ضعفه ولحظاتِ انكساره وهو مطمئنٌ تمامًا أن الطّعنةَ من المستحيلِ أن تكونَ أنتِ مصدرُها، لم يجد حرجًا في أن يتطرفَ معاكِ في مشاعره سواءً في فرحته أو حزنه أو حتى جنونه وهفواته.**
- **تتحدثين يا "سارّة" وكأنّي قد وعدته بشيءٍ، هو مجرد...**
- **لا يا "جاسمين" ، لا أنتِ معالِجة نفسية معتمدة تمارسين هذا العمل في إطاره القانونيّ، ولا هو مريضٌ يُمّثلُ خطورةً على أحدٍ ، أو يحتاجُ إلى العرض على الطبِّ النفسيّ، أنتِ مجرّدُ أمينة مكتبة تستكملُ طموحَها بحصولها على درجة الماجستير، امنحي قلبَك أن يختارَ من جديد، دعي مَن أحبّك يستطيعُ من خلالك أن يتخلصَ**

من أصفادِ الدّنيا، وقيودٍ رَسَمها بنو البشرِ، تلك القيود التي تضيّقُ عليكِ وعليه أنفاسكما، وتحدُّ من راحتكِ وحريتك.
وضعتُ رأسي بين يدي وكأنّي عاجزةٌ عن التّفكير، وكأنّي أصابني دوارُ كلِّ البحار والمحيطات :

- ارحميني يا "سارّة" .
- لا يا "جاسمين"، أنا صديقتك وأقربُ النّاس إليكِ، يا "جاسمين" لو حدث وضحكت لكِ الدّنيا وأقبلتِ إليكِ بوجهها مانحةً لكِ مثلَ هذا النّادرَ فتشبثي به ، وأغلقي عليه ضلوعَك، واجعلي قلبك مستقرّه ومأواه، الرّزقُ يا "جاسمين" لا يُترجمُ فقط في هيئةِ أموالٍ أو متاعٍ زائلٍ، الرّزقُ قد يكونُ في هيئةِ إنسانٍ يملأُ عليكِ دنياك ويعوّضك ما مرَّ بكِ من جراحٍ .

قمت عن مكتبي وأخبرتها أنّي سأستأذنُ وأعوُد إلى بيتي ، فأنا في حاجةٍ إلى الرّاحةِ وإعادةِ ترتيب أوراقي .
نظرت نحوي نظرةً طالما رأيتها في عينيّ أمّي، كلمةُ أخيرةُ يا "جاسمين" قبل أن تنصرفي، الحبُّ لا يأتي مرتين ولا يتكرّرُ، فهو كالموت والعمر، بل وربّما تنتهي حياتك دون أن تقابليه.

- تركتها دون أن أنطقَ بكلمةٍ واحدةٍ، وقد أيقنتُ أنّي اتخذتُ خطوةً لم أرّتب لها جيدًا، ويجبُ أن أبحثَ عن مخرجٍ آمنٍ قبل فواتِ الأوانِ .

الهروبُ

لا شيءَ يضاهي سماعَ بكاء الطّفل بعد ولادته علامةً على أنّ كلَّ شيءٍ على ما يرامُ ، لكن هل دلالة هذه الصّرخة أنّه غيرُ سعيدٍ بعد أن اضطر مغادرة رحمه الدّافئ لمواجهة هذا العالم الموحش ؟ شاهدتُ منذُ سنواتٍ فيلم كارتون فرنسيّ يتجاوزُ السّبع دقائق بقليلٍ ، عن رجلٍ حبيس غرفته ، يرفضُ كلَّ المحاولات لإخراجه منها، أن يعبرَ فقط من خلال بابها، يتشبّثُ بأركانها وجدرانها وهو يعي من داخله استحالة الاستمرارية فيها والبقاء، يتصوّرُ غرفته جنّةً أرضيةً مليئةً بالأزهار والثّمار وأسماك الزّينة التي يسبحُ معها، وأمام عناده والتصاقه بغرفته ما كان منهم إلّا أن قرروا إخراجه منها عنوةً، صنع من ملاءة سريره حبلًا وقيّد نفسَه به ليفسدَ عليهم خطتهم، مرّروه من الباب رغمًا عن إرادته..كانت الغرفة رحمَ أمِّه، وكان حبلُ النجاة الذي طالما لجأ إليه هو الحبل السّرّي..كان الباب الذي يرهبه هو الممرُ من ضيق الرّحم إلى سعة الحياة.

لا أدري ما الذي جعلني أتذكّرُ هذه القصّة الآن، حاولتُ الهروبَ من حديث "سارّة"، ملتمسة ذلك بإذن خروج من العمل لعدة ساعات، فتمددت السّاعات وانتفخت حتى صارت أسبوعًا كاملًا، لا أدري هل هو فعلًا إعادة ترتيب أوراقي قبل فوات الأوان، أم محاولة يائسة حتى لا أغادر باب غرفتي؟

قطعت أمّي عليّ حديث نفسي، وطلبت مني أن أمرَّ عبر باب غرفتي، فصديقتي "سارّة" حضرت لزيارتي، وهي الآن تجلسُ

بالصّالون، بحثتُ عن عذرٍ كي أتجنّبَ تلك المواجهة، لكنّ أمّي عاتبت عليّ، فليس من طباعي الهروبُ، رغم أنّي رفضتُ طوال الأسبوع رغبتها في زيارتي، ها هي تحضرُ بدون إذنٍ مسبقٍ لتجبرني على مقابلتها .

- صباح الخير يا ستَّ النّساء، كم اشتقتُ إليكِ يا معذبتي..

قالتها بنبرة لا تخلو من الخبث والابتسامة الموارِبة.

- صباح الخير يا "سارّة"، كيف تسيرُ أمور العمل في غيابي؟

وهي تلتهمُ قطعَ الكيك التي أحضرتها لها أمّي، وبلامبالاة مصطنعة :

- لم يحضر سوى مرةٍ واحدةٍ طوال الأسبوع.

باستغرابٍ شديدٍ :

- مَن هو يا "سارّة" ؟
- المهزوم بأسلحتك التي لا ترحم ؛ عذوبة صوتك وفتنة عينيك.

ارتفعت نبرة صوتي دون إرادتي :

- من فضلك يا "سارّة"، لقد أغلقت هذا الباب إلى غير رجعة ولا داعي لفتحه مرّةً أخرى، ولن أُكمِلَ هذه المسرحية الهزلية، لن ألعب بالنيران فأحرق نفسي وأحرق ...
- تحرقيه ، قوليها يا "جاسمين" ، تحرقيه، أنتِ لا تجدين فنَّ الكذب يا صغيرتي ، لم أركِ تفعليها من قبل .

- أنا لم أحرق أحدًا يا "سارّة" ، ولستُ مضطرةً أن أخوضَ مزيدًا من التّجارب التي تنال من سلامي النفسيّ وراحتي، أخبرتك، لقد أغلقت هذا الباب.

تركت ما بيدها من طعام ثمّ نظرت نحوي:

- وهل مَن يغلق الباب يا جاسمين يترك النّافذة للدّخول غير الآمن والمحفوف بالمخاطر؟
- ماذا تقصدين يا "سارّة"؟
- أقصدُ أنّكِ قرّرتِ الهروبَ من المواجهة المباشرة بتغيبك عن عملك، في حين أنّكِ تركتِ له باب الأمل .

حاولت الهروب من قيد عينيها، والانفلات من حوارٍ لم يُجدِ معه هروبُ أسبوعٍ كاملٍ :

- أيُّ باب أملٍ تقصدين؟
- باب الأمل ..حين سمحتِ له بمراسلتك عبر تطبيق الواتس آب كلَّ صباحٍ برسائل صباح الخير، حين كتب فيك قصائد الحبّ ووصف سحر عينيك التي أوقعته في حبّكِ ، حين استقبلتِ زهور التوليب التي لم ينقطع عن إرسالها لك طوال فترة الهروب .
- لم يكن هروبًا يا "سارّة"، ولا يعني أنّي سمحتُ بما تقولين عمّن مرَّ عبرَ نافذتي أنّي أحببته ، ثمّ مَن الذي دلّه علي عنواني حتى يرسلَ لي عليه تلك الزّهور كلَّ صباح ؟

محاولةً أن تُخفي ارتبَاكها :

- أنتِ لم تحبّيه يا جاسمين، أنتِ وقعتِ في شركه يا عميقة العينين .

- من فضلك يا "سارّة" ، لا أسمح لكِ.

وهي تحدّقُ النّظر فيّ :

- لماذا تتهربي من النّظر إلى عيني ؟ لا تقسي على نفسك يا ستَّ النّساء.

أصابتني رعشةٌ غريبةٌ لأول مرّةٍ، وحمرةُ خجلٍ لاحظتها "سارّة" .

- لن أعاندَ نفسي يا "سارّة" ، لن أعاند ، نعم أحببته .

لم أشعر بنفسي إلّا وأنا أبكي بحرقةٍ، فقدتُ السّيطرةَ على نفسي، سارعت "سارّة" وأغلقت باب الصّالون ثمّ طارت نحوي وأسندت رأسي إلى صدرها .

- حمدًا لله على سلامتك يا ستَّ النّساء، أنتِ "جاسمين" التي عرفتها، التي لا تهرب أبدًا من أرض المعركة، الحبُّ ليس عارًا نستترُ منه أو نبتعدُ عنه عبر باب الفرار، الحبُّ خُلق لنفرَّ منه إليه، إليه يا "جاسمين" .

وأنا أحاول استعادة تماسكي :

- لندع هذا الأمر الآن يا "سارّة" ، ولنخض في حديثٍ غيره.
- وليكن يا صديقتي، ما رأيك أن أتحدّثَ فيما أجيده ، هل تعلمين ما أكثر الأبراج تشابهًا ببرجك يا "جاسمين"؟

وافقتُ على طلبها لمجرد تغيير الموضوع، ومحاولةً منّي لالتقاط أنفاسي .

- هو من الأبراج المائية مثلكِ أنتِ يا أنثى الحوت، يتميّزُ بأنّه عاطفيّ بشكلٍ كبيرٍ، طفوليّ، لديه موهبة تكوين

علاقات جديدة، تُعد صفة الشّجاعة والقوة والخيال الواسع من أبرز مميزاته وهذا ما يجعله قويًا قادرًا على تحمّل المسؤولية من الدّرجة الأولى .

ضحكت منها :

- ينقصك أن تقرأي الفنجان وتستقرئي الودع .

بنظرةٍ حازمةٍ تفتقدها "سارّة" كثيرًا :

- إنّه علمٌ يا جاهلة وليس قراءة فنجان ولا استقراء الأحجار التي لا تنفعُ ولا تضرُّ .

حاولتُ تلطيف الجوّ :

- أمزح معك أيّتها الخبيرة، وآسفة على المقاطعة.
- يُظهر إخلاصًا نادرًا في علاقات الحبّ بالرغم من خجله في البداية، لكن إذا بادر الطُّرفُ الآخرُ، فسيتمسك به ويفعل المستحيل للحفاظ على هذه العلاقة، بينكما توافقٌ غيرُ طبيعيّ، وذلك بسبب التّواصل الذّهنيّ الجيد والصّفات المشتركة بينكما، قادران على إظهار أفضل ما فيكما من أجل إنجاح العلاقة، علاقتكما أشبه ما تكون بالقصص الرّومانسية الخيالية التي دائمًا ما نقرأها في الكتب .

قاطعتها :

- أظنُّ حان الوقتُ لتذكري اسم هذا البرج الذي يتوافقُ مع برجي .
- الأكثرُ جرأةً في الكتابة، الأكثر خجلاً في الواقع .. إنّه ذكرُ السّرطان يا ستَّ النّساء، الذي يتوافقُ معكِ لنسبة قد تصل إلى ثمانية وتسعين بالمئة.

لم اهتمّ كثيرًا بهذا الهُراء حتى تجمّدتُ عند عبارة " الأكثر جرأة في الكتابة، الأكثر خجلًا في الواقع"، تذكّرتُ كيف يكونُ خجولًا معي في حديثنا، يتجنّبُ النّظرَ إلى عيني، وإن حدث ذلك عَرَضًا يَحمّرُ خجلًا .. هذا الخجول الذي يتحرّرُ في رسائله لي كلَّ يومٍ ، أفقتُ على صوت "سارّة" وهي توقظني من شرودي:

- هل أخبرك عن حديث نفسه، والحالة التي كانت تصيبه وهو مندمج في عالمه الخاص؟ هل كشف عن سرِّ تلك المرأة التي كان يكتبُ لها ؟
- تقصدين "عنيزة" ؟ كما توقّعتِ أنتِ، فهي رمزٌ كان يسعى إليه ويبحثُ عنه بين البشر.

كعادتها الساخرة :

- ليس كلُّ البشر يا "جاسمين"، الإناثُ فقط يا حُلوتي، وهل لا زال يحلمُ بها ؟
- لا، ولكنّها صارت تكتفي بأن يراها تبتسمُ في أحلامه من وراء نافذة غرفته جالسةً على ما يشبه السّجادة وتحملُ بيدها ما يشبه المصباح القديم ، "سارّة" ... من أين عرفتِ قصة أحلامه وحديثه في منامه مع تلك المرأة ؟

وهي تحاولُ إخفاء معالم ارتباكها :

- مجرّدُ توقعات يا "جاسمين" ، هل فسرتِ له هذا الحلم؟
- ومنذ متى وأنا أفسرُّ الأحلام يا صديقتي ؟

وضعت يديها أمام يدي حتى تداخلات أناملنا :

- الحلمُ لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ يا "جاسمين"، هي لن تتحدّثَ إليه مرةً أخرى، على الأقل ما دمتِ أنتِ في حياته.

نزعت يدي من يديها :

- لا تزيدي الأمرَ تعقيدًا يا "سارّة".
- الأمرُ غايةٌ في الوضوح عزيزتي ؛المصباح والسّجادة رمزٌ لقصّة علاء الدين وحبيبته ياسمين، ها هي القصّة تعاد بعد مئات السنين على أرض الواقع بتعديل طفيف في الأسماء، فهمتِ أم تحتاجين مزيدَ تفسيرٍ؟

ابتسمتُ ابتسامة الخجل :

- أليس لكِ أسرةٌ تهتّمّ بشأنك ؟ انصرفي .

اندفعتْ نحو هاتفي :

- لن أنصرفَ حتى أرى إحدى رسائله الصّباحية

مضطرةٌ لعلمي بأنّها فعلًا لن تنصرفَ قبل أن تُشبعَ رغبتَها ، فتحتُ لها إحدى الرّسائل، انتزعت منّي هاتفي وبدأت تقرأها:

وتلك العيونُ كوجهِ القمرْ
تداوي جراحي وجَوْرَ البشرْ
ألا تحتويني؟! وتروي حنيني
ونارَ اشتياقي ودمعَ السَحرْ

- يا سيدي يا سيدي، ما هذا الجبروت يا "جاسمين"؟

استغرقتني الحيرة، أي جبروت يا "سارّة"؟

- كيف صمدتِ أسبوعاً كاملًا أيّتها القاسية على تلك الرّسائل التي تذيبُ الحجرَ؟ لو كنتُ مكانكِ ما صمدت أكثر من سبع ساعات، لا سبعة أيام أيّتها المتجبرة ...

وفي لحظةٍ اختفت نظرتها الحادة واستحالت ابتسامة واسعة ـ كابتسامة أمّي ـ لم أرها كثيرًا منها، ضمّتني إلى صدرها :

- كم أحبّك يا "جاسمين " وأتمنّى لك كلَّ خيرٍ !

لأولِ مرّةٍ أشاهدُ ما كنتُ أسمع عنه وأحسبه خيالًا، لأولِ مرّةٍ لا أفهم دموعي، فهي خليطٌ بين الفرحةِ والخوفِ والتّردّدِ والرّجاءِ، والأكثر غرابة دموع "سارّة "صديقتي .

ودعتني أختي التي لم تلدها أمّي، شعرتُ بحاجةٍ مُلِحّة للنّوم لاستعادة توازني، لعلّي أرتّبُ أوراقي هذه المرّة، يكفيني ما مررتُ به من بعثرةٍ وانقسامٍ .

ملتقى البحرين

كعادته يرسلُ لي رسائله الصّباحية التي صرتُ أبحثُ عنها كالمجنونة بمجرد أن أفتح عيني على الدّنيا، بل صرتُ أبحثُ عن حياتي من خلال رسائله التي تثبتُ أنّني لا زلتُ على قيد الحياة، بل على قيده هو..فتحت رسالته الصباحية، أيعقل! هذا الذي استضعفته حين رأيته في زياراته الأولى للمكتبة ها هو الآن يُحسنُ الولوجَ إلى أعماق قلبي بدون أدنى مجهودٍ أو استئذانٍ ! أعاد إرسال إحدى صوري وكتب تحتها رسالته....

"وكأنّها نفسي الجميلة قد أتت من كوكب الأرض الموازي لأرضنا، جاءت إلى الدّنيا تعانقها يدي، وتذوبُ في كون الإله السّرمديّ يضمّنا، أترانا يا عمري وأملي وفرحتي يومًا تفرقنا السّنون، وقد نقشنا بروحنا ودمائنا : صرنا كيانًا واحدًا يا أنا ؟

- عدتُ لعملي مقبلةً عليه، بل مقبلةً على الحياة، عدتُ لـ"جاسمين" التي افتقدتها منذ سنوات، أمّا عنه .. فقد تعدّدت لقاءتنا بحضور زرقة النّيل ورزقة السّماء كما يحبُّ هو أن يصفها، مرّت عدّةُ شهورٍ، وكلُ يومٍ يمرُّ علينا أكتشفُ أنّ توقعات "سارّة" كانت صادقة، كم كنتُ أشعرُ برهبةٍ مخيفةٍ من نقاط الاختلاف اللامتناهية التي تفرّقُ ولا تجمعُ ، لكنّني شيئًا فشيئًا وجدتها تتساقط أمامي كأنّها أوراقُ الشّجر في عاصفةٍ خريفيةٍ أتت على كلِّ المخاوف القديمة، لم يعد يحضرُ المكتبةَ إلّا نادرًا، وحين تعجّبت

"سارّة" أعدتُ عليها ما قاله لي ... عوّضني اللهُ بكِ، فلستُ بحاجةٍ للهروب من إخفاقي قبلك بمحاولةٍ بائسةٍ لإثبات وهمِ الحبِّ المستحيل.

مساء الخير سيدتي، لم أحضر اليومَ لاستعارة الكتب، بل هي دعوةٌ لأجمعَ لكِ الثّلاثية في آنٍ واحدٍ، زرقة السّماء وزرقة النّيل وزرقة البحر، الدعوة لمدة يومين في نهاية الأسبوع، ولا عذرَ لكِ، ثم ترك زهور التّوليب البنفسجية وانصرف.

أحببتُ مجنونًا، اتصلتُ به هاتفياً لاستفسر عن هذا الجنون، حجز غرفتين منفصلتين بأحد فنادق مدينة رأس البر السّاحلية، حيثُ ملتقى البحرين، البحر والنّهر، العقلاء يسافرون إلى مصيف رأس البر صيفًا، وحبيبي قرّر أن نزورها في فصل الشّتاء، تجربةٌ لا أعرفها، ولا أدري كيف وافقت على عرضه المجنون؟ هل الحبُّ يسلبُ الإرادة؟ أم أنّنا نكونُ أشدَّ حرصًا على ما قرّرته إرادتنا وتبعات الاختيار؟

كعادتها صمّمت "سارّة" أن تكونَ ثالثَ ثلاثة، لا أعلمُ من أين أتت بتلك الثّقة؟ خاصةً وأنّ الأمرَ فيه طرفٌ أولُ، قد يبدي ضيقًا وتحيّرًا، لكن مجنوني رحّب بكلِّ حبٍّ :

- دعيها لي ولا تقلقي حبيبتي، صنعتُ لها خطة، قالها وهو يضحكُ ضحكة طفلٍ كبيرٍ لا يفصله عن عالم طفولته إلّا ما يُجمَّلُ به وجوه الرّجال ، لم أتصور مطلقًا أن أرى هذا السّحر، المدينة التي تعاني صيفًا من طوفان البشر تتحولُ إلى جنّةٍ أرضيةٍ في الشّتاء، لا يسكنها بالكاد إلّا أهلُها،

سكونٌ وهدوءٌ لا يتحمّله إلا منتسبو الجنون كارهو الازدحام، ولا يعشقه إلّا حبيبي .

جلسنا في منطقة اللسان، حيثُ يستريحُ النّهرُ أخيرًا بعد أن قطع أكثر من ستة آلافٍ وستمائة كيلو مترٍ من منابعه في عمق إفريقيا وحتى ارتمائه في حضن البحر، كيف يمتزجان رغم الاختلاف ؟ ثم أين كان يختفي كلُّ هذا السّحر عنّي؟

ابتسم وهو يُقّبل أطراف أناملي :

- إن تعجبت الدنيا بأسرها عن كيفية امتزاج البحر بالنّهر، فحُبّنا أكثرُ عجبًا يا ستَّ النّساء، ألستِ تقولين: ما يجمعه الله لا يُفَرّقه إنسان؟

أمعنتُ النظرَ في عمق عينيه، لأول مرّةٍ أنتبه، هي تبدو للرّائي أنّها سوداءُ، حتى هذه لم انتبه لها ! عيناها بنية اللون، أيها المخادع ! ماذا فعلت بـ "سارّة "؟ لا أراها.

ابتسم بمكرٍ، "أسامة" صديقي تكفّل بالأمر، قرّر أن يعتذر لها عن سخافته بالمكتبة حين زوّر اسمه.

- وكيف سيعتذر لها؟

- سيجعلها تكره اللحظة التي فكّرت فيها أن تُضيّق علينا خلوتنا، قرّر أن يتجولا سويًا لمشاهدة معالم المدينة سيرًا على الأقدام، من أول منطقة اللسان وحتى بوابات المدينة.

استغرقنا في الضّحك، ضحكٌ غادرني منذُ طفولتي ولم أتخيل يومًا أن يغادر غربته ويعود من جديد، سألته عن سرّ اللون الأزرق وعن اختيار هذا المكان، عن ملهمته التي كانت

توشوشُ له بأسرار الكتابة والشّعر، عن سرِّ اسمها، صوتها، لون عينيها... عانق يدي وهو يتأمّلُ فرحة الأمواج وهي تعانقُ رمال الشّاطئ :

- كم ندمتُ على عمرٍ غالٍ تسرّب من بين يديّ حبيبتي لم أكن فيه بقربك أنتِ، وفي قلبك أنتِ؛ فالمروّ يسعد بمن يشبهه ويزهرُ حيثُ يتمازج القلبان وتتلاصق الأنامل مع شبيهاتها.
- لن تضللني هذه المرّة أيّها المقامر.. همستُ بها ما بين الفرحة والغيرة وحبِّ الامتلاك، لأول مرة أشعرُ أنّني أنثى، لأول مرة تنتابني رعشة الغيّرة ولذّتها المؤلمة.

ابتسم وهو يعانقُ يديّ :

- ومنذُ متى والخداعُ يرسمُ خطواتِنا حبيبتي ؟ أمّا عن اللون الأزرق فهذه مدينتي التي ولدت بها، خرجتُ إلى الدّنيا وفتحتُ عيني على زرقة البحر والنّهر والسّماء، أهربُ إليها في فصل الشّتاء ما بين مياهها ونخيلها الذي يعانقُ الأفق الشّارد، بعيدًا عن زحام القاهرة وتلاطم البشر.

وكأنّي تذكّرتُ شيئًا :

- هذا يفسر سبب اختيارك مدرستك النّائية؟
- نعم سيدتي، مدرسة البين بين، على حافة المدنية الخانقة وحقول القمح وأشجار النّخيل التي لا زالت تعانقُ تغوّل الأشجار الإسمنتية.
- وماذا عنها ؟ لا أدري ما الذي ألّم بي؟ لم أكن يومًا ما لحوحةً كصديقتي "سارّة".

- كانت رمزًا يا "جاسمين"، أبحثُ عنه في كلِّ الدّنيا، ولم أتخيل أبدًا أن يستقرَّ أخيرًا، ويحطّ على أرضك، ويرتضيك لي حبيبةً ورفيقةً ووطناً لا يخونُ .
- وماذا عن اسمها ؟

استغرق في ضحكه :

- ألم أخبركِ؟ غيّرتُ اسمها في كلِّ أوراق الدّنيا، اكتشفتُ أنّه كان اسمًا وهميًا.... فتح دفتره : من واقع الأحوال المدنية لساكني ديوان العاشقين حبيبتي تُدعى "ياسمين" وفي رواية أخرى "جاسمين" .

حاولتُ أن أخفي تلك المشاعر التي لم أجربها من قبل، سألته... هل لا زلت تعاني من الانفصام ؟ وكأنّه فيلسوفٌ يؤّرخ تأملاته فيما وراء الطبيعة :

- الفصامُ حبيبتي أن تكوني عاقلةً مع كلِّ العالم، في منتهى المجنون معي أنا وحدي، شعورٌ لا يُوصف إلّا بالأمان، الإدمان.. شخصان امتلآ بالأضرار، فقررا ترك العالم جانبًا في محاولة ترميم بعضهما البعض.

كيف أوصلني هذا المجنون إلى مرحلة العجز عن الردّ وتلعثم الكلمات، انتزعت منه دفتره الذي يحوي أسراره :

- ماذا كتبتَ لي اليوم ؟
- أبدًا...أحاول كتابة قصة قصيرة اندفعت نحوي فكرتها ليلة أمس ، لم أنتهي منها بعد.

بدلال الأنثى :

- هيا اقرأ.
- سمعًا وطاعَة يا ستَّ النّساء...

" في ليلةٍ باردةٍ من ليالي مطار زيورخ، في أحد أركانه الأكثر صمتًا بين ضجيج المسافرين، يقفُ وحيدًا، أسير التّوتر والقلق، بالكاد يسيّطرُ على رعشة يديه وتوترها، يلتصقُ بهاتفه، يبدو أنّه يتواصلُ مع شخصٍ ما، في رحلة من رحلات الطّيران بين القاهرة وسويسرا ، عبثًا يحاولُ أن يسيطرَعلى نفسه، يصارعُ ارتباكه، يعاني خليطًا غريبًا من المشاعر والأحاسيس؛ خوفٌ وقلقٌ ولهفةٌ وفرحةٌ ورجاءٌ واشتياقٌ، عيناه لا تفارقُ لوحة الإعلان عن حركة الطّيران، يتصاعدُ القلقُ، وكأنّه يصّعد في السّماء، يبدو أنّ الاتصال بالطّرف الثّاني انقطع تمامًا، الحالة على لوحة حركة الطّيران تتغيرُ، ولونه كذلك، وصلت الرّحلة ؛ الرحلة قيد النّزول ، الرّكاب في انتظار الحقائب ، يقفزُ من مكانه ، رسالة نصّية بوصول الطّرف الثّاني لأرض المطار، مسألةُ وقتٍ لا غير، خَتمُ جوازِ السّفر إيذانًا بالختم على أحزانه بالخروج النّهائيّ من قلبه بلا عودةٍ أو رجوعٍ ، عيناه لا تفارقان حركة خروج ركاب الرّحلة، أخيرًا ... ظهرت حبيبته من بعيدٍ وهي تجرجرُ حقيبةَ سفرها وتجرجرُ معها إرهاقَ السّفرِ الطّويل...."

- أكمل يا "علاء"، أين بقية القصة؟

ابتسم وهو يجذبني من يدي برفق :

- لم أنته منها بعد، دعينا نشاهد حركة دخول بعض سفن الصّيد العائدة بعد غياب شهر أو أكثر، هل تشاهدين

الأطفال والنّساء بالضّفة الثّانية من نهر النّيل؟ حيث مدينة عزبة البرج، ينتظرون عودة الغائبين ما بين خوفٍ ورجاءٍ، لا يغرنك حبّي للبحر، فهو على قدر رقّته وسحره يغدرُ بالمحبّين.

أشفقتُ عليه، ما بين رعشةِ يده ونظرته الحائرة :

- كيف وقعتَ في حبّه رغمَ غدره وقسوته؟

احتضن يدي :

- إذا كنتِ تبحثين عن الكمال فأنتِ لا تبحثين عن الحبِّ، لأن معجزة الحبِّ تكمنُ في عشق العيوب ، الحبُّ كالبحر، إن زعمتِ أنّكِ تحبّينه فلا بد لكِ أن تتخطّى جميع مراحله، تستمتعين به وقت غروب شمسه، تتقنين لغة وشوشته، تتناغمين مع عناق أمواجه مع رمال الشّطآن، تحتضنيه، تعانقينه، تتعثر قدماك في ضحالة مياهه، يبلعك جوفه وتذوقين ملحه الأجاج، يحتضنك بقسوة وكأنّه يسلبُ منكِ روحَك، حين تمرّين بتلك البوابات يمكنك فقط أن تقرّري إن كنتِ تحبّينه حقًا أم كان حبًّا كاذبًا لا يثمرُ عطرًا ولا عشقًا ولا بذورًا.

أشفقتُ عليه، أعلمُ أنّه خارجٌ توًا من دائرة الفشل، لكنّي لم أتخيّلها بهذه القسوة وتلك الآلام ، قبضتُ على يده :

- أحببتكَ وتقبلّتكَ ، وسأمرُّ معكَ وبكَ عبر جميع بوابات وعراقيل الطّريق، بعيوبك قبل مزاياك، قلقك قبل هدوئك، جنونك قبل اتزانك .

عادت إليه ابتسامته أخيرًا : إذن ....

- إذن ماذا حبيبي ؟

- يبقى أن نُظهر تلك المعجزة للأخرين حتى يقال عنّا : لم ينته بعد زمنُ المعجزات .

طابيةُ عرابيّ

وهو يتجوّلُ معها بين شوارع مدينة رأس البر وأسواقها، جاءته رسالة على هاتفه من صديقه "علاء"..لا تتعجّل العودة قدرَ الإمكان ، فهم "أسامة" مغزى الرسالة وردّ عليه..عُلِم .

سألته :

- أين البطاطا الحلوة السّاخنة التي وعدتني بها ؟

نظر إليها محاولًا إخفاء ثورته :

- عندما تنتهين من الذّرة المشويّة التي بيدك يا "سارّة".
- أخبرني يا "أسامة"..هل جرّبتَ أن تُشغّبَ على صديقك، لتختبر مدى حبّه لها؟
- نعم، وأعطاني درسًا لن أنساه أبدًا.

لم تستطع إخفاء شماتتها فيه :

- أسعِدني يا "أسامة"، فأنا أتلذذُ وأنا أراكَ تُلّوحُ بمنديل الاستسلام .

متحدثًا لنفسه..أيّتها السّمجة :

- سألته يا "سارّة " مستنكرًا : أتحبها ؟
- أجاب بحزمٍ : جدًّا جدًّا
- بنظرتي الماكرة : جدًّا جدًّا، أم جدًّا جدًّا جدًّا ؟
- أطال فيّ النظرَ ثم قال : انظر يا صديقي، لستُ ممّن يحبّون السفسطةَ والأحاديثَ التي تشبه عفريتَ العُلبةِ، لا تستطيعُ الإمساكَ به، فلا يدين له ولا قدمين، كلُّ ما أعلمه يقينًا أنّي

أحبّها، لا يوجدُ في الدنيا بأسرها ما يستحقُّ أن أفرّطَ في حبّها من أجله.

- وماذا فعلتَ يا عبقريّ زمانك حين ضيّق عليك الخناق ؟ قالتها "سارّة" وهي تتطلعُ إلى الذّرة المشويّة التي بيد "أسامة".
- أبدًا.. حاولتُ أن ألطّفَ من الحوارِ، قلتُ له : هدئ من روعك أيّها العاشقُ الولهان ! الدّنيا بأسرها، بأسرها ؟ فما كان منه إلّا أن ازداد صرامةً وحدةً، وصوّب نظرته الحادة نحوي قائلًا: هل أنتَ من هواةِ تكرارِ الكلماتِ واجترارِ الأحاديثِ ؟ نعم الدّنيا بأسرها ؛ أتستطيعُ أنتَ أن تستغنىَ عن أنفاسك ؟ عن إحساسك؟ عن روحك التي تسري في جسدك ؟ عن إرادتك؟ عن اختيارك الواعي؟ عن وجودك في الحياةِ ؟ إن تستطعْ فدعنا نخضْ جولةً أخرى من النقاشِ أو الزم الصمت ، بابتسامةٍ باهتةٍ حاولتُ أن أهربَ من الكمين الذي ورّطتُ نفسي فيه .. كلماتك كبيرةٌ لا تخرجُ إلّا عن الكبارِ، فما كان منه إلّا أن سخر منّي قائلًا : إن كانت حقًّا كلماتي كبيرةً عليك وتعجزُ عن استيعابها، فانشغل بنفسك لأنّ الحدثَ فوق طاقتك يا مسكينُ .

انفجرت "سارّة" ضاحكةً ، تقصدُ أنّك لم يمرُّ عليك قصّةُ حبٍّ كقصةِ حبّ "علاء " و"جاسمين" ؟

وهو يعطيها الذّرة المشويّة التي تخصه :

- لم يكن هناك أحدٌ أقربَ إليه منّي، فهو صديقُ الطّفولة ، تبقى المعضلة الأساسية أنّه على قدر ما يُحبُّ على قدر ما يُجرَح ويتألّم .

وهي تلتهمُ حصّته من الذّرة المشويّة :

- صار هناك مَن هو أقربُ منك يا عزيزي، لكنّي لا أفهمك يا "أسامة".
- لقد أحبّها يا "سارّة" وانجرف في حبّها، وتعلّق بها حتى صارت له أنفاسُه التي يحيا بها، صار اسمها النّبضَ الذي ينبضُ به قلبُه ، صارت له...
- لماذا تفسد علينا هذا الجو الشاعريّ يا "أسامة"؟ لا أراهما الله مكروها.
- دعيني أقرأ لكِ إحدى رسائله التي كتبها إليها، ربّما تفهمين مقصدي...

" قمرُ ليلي التي جاد بكِ الزّمانُ، فعادت لي روحي من جديدٍ، يا مَن هواكِ القلبُ منذُ العمر القديم، أقسمت عليكِ حبيبتي ألا يعاودنا الفراقُ بسواده ورائحة الموت الكئيب، تبقين أنتِ حلمي الراسخ في وجداني وحنايا الفؤاد، تبقين أنتِ أجملَ ما جادت به الدّنيا وصالحني به الزّمان، أحبّك يا أنا ".

- بالله عليك يا "أسامة"، أنا غامرت بالحضور معكم إلى مصيف رأس البر في فصل الشّتاء، لعلّي أجدّدُ طاقتي وأستنشقُ هواءً نقيًا بعيدًا عن تلوث القاهرة، فلا تفسد

علينا تلك اللحظات الجميلة بذكر الفراق ورائحة ما لا يُسمّى، أخبرني يا "أسامة" ... ما تعريفك للحبّ؟

وهو يستلهمُ روح "ويليم شكسبير" أو " توماس وايت" ...الحبُّ يا "سارّة" أن اشتري لكِ كلَّ ما تقعُ عينك عليه وتزقزقُ له عصافيرُ بطنك من الذّرة المشويّة والبطاطا الحلوة السّاخنة .

استغرقت في الضحك :

- وما الحبُّ المتبَادلُ ؟ وما التّضحية في الحبَّ يا رومانسيّ زمانك ؟
- الحبُّ المتبَادلُ يا "سارّة" هو أن تردّي الدّعوة وتدفعي أنتِ الحساب، أمّا عن التّضحية في الحبِّ، فهي حين آثرتك على معدتي، وأعطيتك حصّتي من الذّرة اللذيذة.

وكأنّ حبّاتُ الذّرةِ عطّلت مجرى البلع لديها :

- ما أعلمه أنّ صديقك وُلد بهذا المدينة، وكلُّ تصرفاته تدلُّ على أنّه من بيت كرمٍ وجودٍ، هل لكَ أصولٌ دمياطية يا "أسامة" ؟

انفجر ضاحكًا :

- ما رأيك في حبٍّ عمليٍّ يا "سارّة"؟

نظرت إليه مندهشة :

- حبٌّ عمليٌّ !
- نعم ، أدعوك إلى تناول وجبة فطورٍ لن تنسيها طوال عمرك في رحاب مدينة عزبة البرج العتيقة، ثم كوبين من

عصير القصب يناطحُ طولُهما ارتفاعَ الفنار الذي يحرسُ مدخل المدينة، ثم جولة سياحية حيثُ طابية عرابي إحدى القلاع الحربية التي أسسها الاحتلال الفرنسيّ .

- ثم ماذا ؟
- ثم جولة في ورش تصنيع السّفن .
- ثم ماذا؟
- ثم نذهبُ إلى سوق السّمك، ونشتري من الأسماك ما لم تسمعْ عنها معدتك من قبل، ثم نتشارك وجبة الغداء مع العاشقين .
- هل أحاديثُ الحبِّ تجعلُ العشاقَ يتضورن جوعًا يا "أسامة"؟
- لم أجرب يا "سارّة".

محدّثة نفسَها .. مغفلٌ ..

- قبل أن أنسى، وبمناسبة العشق والعشاق وبعيدًا عن الاستعانة بصديقك، اعتمد على نفسك وأسمعني شيئًا من ديوان المحبين .

عاد من جديدٍ ليستحضرَ روحَ شعراء الرَومانسية...

وَتينَةٍ غَضَّةِ الأَفنانِ باسِقَةٍ .
قالَت لِأَترابِها وَالصَّيفُ يَحتَضِرُ .
بِئسَ القَضاءُ الَّذي في الأَرضِ أَوجَدَني .
عِندي الجَمال وَغَيري عِندَهُ النَّظَرُ .

- أرى يا "أسامة" أن ندركَ وجبة الفطور أفضل .

ابتسم وهما ينزلان من المركب التي عبرا بها من ضفة مدينة رأس البر إلى ضفة مدينة عزبة البرج التي تستقرُّ على أرضها طابية عرابيّ الحربية وبيوت الصّيادين .

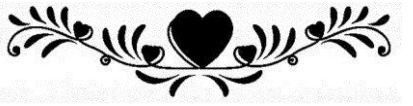

رحلة نيلية

صباح اليوم الثّاني، فاجأني برحلةٍ نيليةٍ على إحدى البواخر السّياحية، تبدأ من مصبّ النّيل برأس البر إلى مدينة دمياط القديمة..ما هذا السّحرُ والدّلالُ والجمالُ؟ بيوتُ الصّيادين وهي تلاصقُ مياهَ النّهر بألوانها الزّاهية الحمراء والصّفراء والزّرقاء، وكأنّها قطعةٌ من مدينة فينسيا، ثمّ منظرُ الخضرةِ وأشجارُ النّخيل بامتداد البصر . أمسك بيدي وأشار نحو مستعمرات النّخيل :

- وسط هذه الغابات بيت جدي، حيثُ أشجار النّخيل والجوافة والليمون والمانجو والبامبوزيا
- بامبوزيا ؟ هل هذه شجرة أم رقصة برازيلية ؟ قلتها وقد استغرقني الضّحك .

ابتسم :

- هي شجرة ثمارها أقرب ما تكون من حجم ثمرة التّوت أو الزّيتون، لونها ما بين الأسود والبنفسجيّ.
- وماذا عن طعمها؟

وهو يستغرقُ في الضّحك :

- طعمها بلمبوزيا ... كانت أمّي تحذرنا من أكلها لأنّها إذا التصقت بالملابسِ يلتصقُ لونها بها ولا يغادرها، كانت ألسنتنا تتحوّلُ إلى اللون البنفسجيّ، ونظلُّ نُخرِجُ ألسنَتا لكلِّ مَن يقابلنا، وكأنّنا تحولنا إلى قبائل الأفاتار.
- إذن حين نزور جدك علينا أن نخوضَ التّجربة معًا.

عانقت يده يدي.. ويتّحدُ مصيرُنا كما اتّحد مصيرُ بطليّ قصة الأفاتار؟

حاولتُ الهروبَ منه إليه :

- لن تخدعني مجددًا، ماذا كتبت لي ليلة أمس ، انتزعتُ هاتفه، يبدو أنّكَ كتبت الكثير... هيا اقرأ.

وفي يناير أحبّك جدًّا جدًّا.
وفي يوليو وفي نيسان .
أحبّكِ في شهورِ القبطِ .
وفي طوبةَ وفي رمضانَ .
يا نقشًا أُسقِط عمدًا
بذكرى دفاترِ النّسيانِ .

لا أدري؟ أين كان يختبئُ عنّي أو منّي؟ كيف مرّ كلُّ هذا العمر دونه ؟ سألته :

- هل ستظلُّ تحبّني؟

وهو يتمعّنُ أشجارَ النّخيلِ التي شهدت طفولَته :

- كعادةِ حواءَ التي لا يُوجدُ لها كتابٌ شارحٌ يُفسّرُ كيف تعملُ رأسها وميكانزيم تفكيرها ولا خريطةٌ تدلُّ الحائرين في بحارها ومحيطاتها .

عمّقتُ نظري في عينيه :

- أجبني أيّها المحتال ..

قال وهو ينظرُ إلى عينيّ ويعانقُ أناملي :

- وهل للحبِّ معنىً إن لم يقترن اسمُه بكِ وبحروفك الحالمةِ؟

بمكرٍ يُغلّفُ ثقتي :

- وما دليلُك يا مَن تدّعي ما لا دليلَ له ؟

وهو يضمُّ يدي إلى شفتيه يُقبّلها :

- كنتُ في البداياتِ أجعلُ لكِ نصيبًا من دعائي حتى وصل بي الأمرُ أن صرتِ كلَّ دعائي وأمنياتي .
- وبمَ دعوت؟
- أن يجعلك نصيبي وقسمتي هنا وهناك.

سألته وقد بدأتُ أفقدُ السّيطرةَ على صلابتي

- وماذا لو جئتَ يومًا تقولُ : هل من مزيدٍ؟

ضمّ يدي إلى صدره :

- الشرعُ لم يحللُ لي سوى أربعٍ، وقد امتلكتِ أنتِ كاملَ مقاعدَ قلبي وموطني .

أمسكتُ بقميصه، وتشابكت أناملي من خلف ظهره، حتى ذبتُ فيه حدَّ الالتصاقِ وهمستُ في أذنه :

- أحبّك أيها المحتال، لكنّي لن أتحمّل ..لن أتحمّل أن أقعَ في فخِّ المقارنات.
- حبيبتي..أنتِ الاستثناءُ، فلا تليقُ بكِ المقارناتُ، أنتِ التي يليقُ عليك كلمةُ "أنثى" وغيرك في أمورهن نظر.
- لا تخدعني بمعسول كلامك... قد ترحل باحثًا عن الجمال في غيري.
- حبيبتي..أنتِ التي إذا ذُكرَ الجمالُ فأنتِ دليله، وإذا تحدّثنا عن الرّقةِ فأنتِ لها العنوانُ، أنتِ التي في حِضنك تتسعُ

الدّنيا، وفي بعادك تضيقُ بي الأرضُ بما رحبت، أنتِ التي في قربها صار الحبُّ له معنىً وللكلماتِ .

بدلال أنثى :

- لكنّهم يقولون : يخلقُ من الشبه أربعين ، فما دليلك على الاكتفاء يا مَن بلقائك عاد قلبي نابضًا.
- حبيبتي .. لا مثيلَ لكِ، أنتِ كلُّك تشبهينك، أنتِ وحدك أربعينك، بلا شبيهٍ ولا مثيلٍ، معادلةٌ لا تقبلُ المقارنةَ، أغنيةٌ أبدع لحنها "بليغٌ" في طفرةٍ من طفراتِ جنونه، رائعةٌ من روائع "نزارٍ" حين يُلقيه الحنينُ، أنتِ امرأةٌ كالعمرِ يمرُ مرةً واحدةً .
- وماذا لو فرّقت بيننا الدّنيا ..وغادرتني؟
- لا حرمني الله منكِ غاليتي، لو حدث، فلن أجمع أجزاءك ولو طوّفتُ بألفِ ألفِ امرأةٍ، ألم أخبركِ أنكِ لا مثيلَ لكِ حبيبتي ؟

انتهت الرّحلةُ النّيليةُ كلمح البصر، مّرت السّاعة وكأنّها أجزاءٌ من الثّانية، غادرنا الباخرةَ السّياحيةَ لعمل جولة بأسواق دمياط العتيقة وشوارعها الضّيقة، ومن بعدها نعودُ لنسيرَ مع مجرى النّهر في طريق عودتنا بالباخرة إلى مدينة رأس البر.

كابوسٌ مرعبٌ

استيقظتُ من نومي على كابوسٍ مرعبٍ.. منذُ دخوله حياتي وارتباطي به انتهت تلك الكوابيس من أحلامي، إرهاقٌ قاتلٌ وألمٌ وصداعٌ رهيبٌ، تحاملتُ على نفسي، قرأتُ رسالته الصباحية، سينتظرني حيثُ ملتقانا المعتاد، وصلتُ متأخرةً قليلًا، خفّفت ابتسامته ما أعانيه من آلامٍ ، سألته :

- هل جئتُكَ كالعادة في أحلامك ؟

بدا متوترًا يحاولُ إخفاءَ شيءٍ ما، لم يستطع المراوغة، فمنذ جمعنا حبُّنا تعاهدنا على حياةٍ ملؤها الصدقُ والوضوحُ، اعترف أنّه يعاني من صداعٍ شديدٍ بسبب ما رأه في أثناء نومه ليلة أمس، وقبل أن نحاولَ تفسيرَ تلك المصادفة كانت الإجابة حاضرةً كالموت ، لم أهتم لـ "هند" حين قالت : إنّكِ واقعةً في قصّة حبٍ جديدةٍ، يا تُرى مَن سعيد الحظّ الذي جعلك تخونين خطيبك وترتمين في أحضان الخيانة ؟ لم أتخيل في أسوأ أحلامي أن أجدَ "أنطوني" يقفُ أمامي، يُلقي تلك القاذورات من فمه الذي لا تفارقه رائحةُ الخمور:

- كيف تسمح لنفسك أن تتحدث معي بتلك اللهجة؟ ومَن قال لك : إنّ هناك علاقةً لا زالت تجمع بيني وبينك ؟ ثم مَن أعطاك الحقَّ أن تقتحمَ حياتي بهذه الوقاحة !

كعادته في الاستخفاف بالآخرين وتعمد تهميشهم وإهانتهم :

- ومَن هذا النّكرة الذي يجلسُ معكِ؟ هل هذا حبيب القلب الذي ضحّيتِ بسمعة العائلة من أجله ؟ قالها وهو يحاولُ جذبي من ذراعي .

في أقل من ثانية اندفع "علاء " نحوه ودفعه بعيدًا .

- لو كررتها لكسرت يديك ، ووقف حائلًا بيني وبين" أنطوني" .

لم يستوعب "أنطوني" ما حدث له ، اعتدل واقفًا بعد وقوعه على الأرض :

- كيف تسمحُ لنفسك أن تفسدَ عليّ خطيبتي؟
- ليست خطيبتك، حافظ على ما تبقى من كرامتك لو كنت تمتلكها من الأساس، لا تلعب في هذه المنطقة القذرة، أخبرتني "جاسمين" بكلِّ شيءٍ عن تجربتها السّيئة معك.

وهو يحاولُ أن يبدو متماسكًا :

- وهل أخبرتك أنّكَ مجرد حالة ؟

نزلت الكلمة كالصاعقة علينا، واستغرقنا الذّهول :

- أيّةُ حالةٍ تقصدُ أيّها المتغطرس؟
- كنتَ مجرد حالة أيّها الأحمق في سبيل حصولها على درجة الماجستير، حالة مرضية أشفقت هي عليها، وقرّرت مدَّ يد العون لك، لكنّكَ صدّقت نفسك وعشتَ الوهمَ ، وحين تطمئنُ هي على اكتمال شفائك ستتركك لحالك، وتناقشُ رسالتَها وتحصلُ على درجتها العلمية أيّها المغفل.

- حيوان ، صرخت فيه محاولةً تجاوز "علاء" كي ألطمه على وجهه.

بدون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ وهو ينظرُ نحو "أنطوني" يتحفّزُ للهجوم عليه لو فكّر لحظةً واحدةً في الاقتراب منّي، أمسك "علاء" بيدي وأوقف سيارة أجرة، وقبل أن تتحرك بنا السّيارة لمحتُ "أنطوني" وهو يسيرُ بجوار"هند"، ما كلُّ هذا الشرّ الذي اجتمعا فيهما ؟ ما الذي فعلته معها كي تبدي كلَّ هذه الكراهية والانتقام؟

انطلقت السّيارةُ تشقُّ الطّريقَ نحو بيتي ولم ينطق "علاء" بكلمةٍ واحدةٍ [illegible] سة لم أعهدها منه من قبل ، لم يستطع إخفاء نظرة الحسرة وهو يتهرّبُ من النّظر نحوي، يا الله..كيف استحالت الدّنيا في لحظةٍ واحدةٍ من بهجةٍ وفرحةٍ إلى ألمٍ ووجعٍ لا يُطاق؟ وجوه النّاس توشّحت بالسّود، شاحبةً بمرارة الوداع، رائحةُ الهواء مُغبّرة، وكأنّي كوكبٌ حائرٌ وقع في فخّ ثقبٍ أسود يبتلعُ ألوانَ الكون من حولي ، لا أدري وكأنّه روحي تنسحبُ من جسدي، هاجسُ الغياب يطلُّ بوجهه القبيح ،وحشٌ ينهشُ روحي ويدمي فؤادي وكياني، وقفت السيارة أمام بيتي، نزل من السّيارة وفتح الباب وانزلني منها، وبدون أيّة كلمةٍ ودّعني بنظرةٍ لم أفهمها، أو أنّني لا أريدُ ، ودّعني بتلك النّظرة الغامضة واختفى بين الزّحامِ .

يومٌ عصيبٌ

دخلت غرفتي، وكأنّها الرّحمُ الذي أعودُ إليه لأختبئ من العالم المرعب خارجها ، لكنّها هذه المرّة لم تعد آمنة ، فروحي خارجها، تركته دون أن أدافعَ عن نفسي، لا أدري كيف تملكني الخرس؟ كيف تركته يذوبُ بين الزّحام دونما أدنى محاولةٍ منّي؟ كيف سمح لي ضميري أن أتركه فريسةً لانتكاسةٍ محتملةٍ يصارعُ فيها الفراغَ الداخليّ والإحساس باليأس؟ أنا السبب، لقد أجرمتُ في حقّه ، يا ليتني لم أعرفه، يا ليتني مِتُّ قبل هذه اللحظة ، نادتني أمّي بعصبيةٍ واضحةٍ، حاولتُ استجماع أركان نفسي المنهارة ، مررتُ عبر الباب :

- يا للوقاحة! ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟ ألم يكفيك ما فعلته؟
- ما الذي بدر منّي يا "جاسمين" حتى تحرميني منكِ وتجلبي العارَ إلى عائلتنا ؟ كيف تقبلين على نفسك الزّواجَ من غير المؤمنين ؟ هل فكّرتِ في مباركة الرّبِ لهذه الخطوة اللعينة وهل يتوّفرُ السرُّ الكنسيّ في هذا الزّواج؟ أيمكن أن تعطى الكنيسةُ لهذا الزّواج بركةَ السّرِّ المقدّسِ الذي لا ينفصلُ ؟

صاحت أمّي :

- أيُّ سرّ كنسيٌّ يا "أنطوني"؟ وعن أي عارٍ تتحدث عنه؟ هل تدركُ ما تقول ؟ أم أنّ الخمرَ التي لا تفارقك قد لعبت بك ؟

- اسألي "جاسمين" ابنتك ، الطّاهرة النّقية التي ابتعدت عنّي لأنّ سلوكي لا يروقُ لها، وها هي تسبقني نحو الخطيئة بسنوات.
- اخرس يا حقير، دافعي عن نفسك يا "جاسمين"، قولي: إنّه أصابه الجنونُ .. قالتها وهي ترتمي في حضن أول مقعد قابلها، فكأنّها من هول الصّدمة لم تعد قدماها قادرتين على حملها .

اندفعتُ إليها أضمّها، ورفعتُ نظري نحوه، لن تَخِيلَ علينا طريقتك هذه المرّة، أنتَ لا تحبُّ إلّا نفسَك، أنت لا تبحثُ إلّا عن ملذاتك، تتلونُ مثلَ الحيّات للسيطرة عليّ، والتّلاعب بي ، لمجرد أن تُشبعَ نفسَك المريضة في حبِّ الامتلاك، هل خوفك على سمعة العائلة هو ما دفعك للحضور من بيروت إلى القاهرة ؟ أم أنّ نرجسيتك لا تتحمّل هزيمةً جديدةً ؟

- تكلّمي يا خالتي، أعيدي إليها عقلها، ذكّريها أنّ الربّ ينهى المؤمن باعتباره هيكل الله الحيّ أن يلتصقَ مع غير المؤمن في جسدٍ واحِد وهيكلٍ واحدٍ، ذكّريها حين بررتْ لكِ سبب فسخ خطوبتنا حين قالت : "لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ".
- تكلّمي يا جاسمين ، هل هناك أحدٌ في حياتك ؟.. قالتها أمّي وهي ترتجفُ .

اقترب منّي بمراوغة الثّعالب ودموع التّماسيح :

إن كنتُ تجاوزتُ في حقّك، فها أنا أعتذر، لا تكوني أنانيةً يا "جاسمين"، فكّري في أمر أسرتك والعار الذي سيلحقُ بها، فكّري.

صرختُ فيه :

- لا تلبس مسوحَ القديسين وأنت غارقٌ في وحل الرّزيلة، ابحث عن طوقِ نجاتك بعيدًا عنّي، وابتعد عن حياتي وشؤوني .

في لحظاتٍ اختفت دموعُه المزيّفة، وعاد إلى وجهه القبيح، ولهجته المتغطرسة :

- هذه إهانةٌ لا أقبلها، مَن تظنّين نفسَك؟ أنتِ ملكٌ لي، ولن أدعك لغيري، وما تنوين عليه يا "جاسمين" الطّاهرة زنا محرّمٌ ، ستكونين زانيةً ، والزّنا محرّمٌ حسب الوصايا.

انفجرت أمّي من مكانها، وهبّت واقفةً :

- اخرس يا كلب ، لن أسمح لك...
- لكن يا خالتي ....
- لستُ خالتك ، وأيّةُ كلمةٍ أخرى سأتصلُ بالشّرطة، وتخرجُ من هنا بفضيحةٍ تلحقك بقيةَ حياتك .
- يا خالتي، إنّها تريدُ الارتباطَ بغير المؤمنين .
- هذا لا يخصّك، هذا زواجٌ لا يمنعه القانون ، هي حرةٌ في اختيارها، كما أنت حرٌ في تنقّلك بين أحضان المومسات وحانات المخمورين، اخرج من بيتي .
- لكن ....
- لا أريدُ رؤيتك مرّةً أخرى، اخرج من بيتي ولا تعد .

ارتميتُ في حضن أمّي وحاولتُ تهدئتها، لكنّي عجزتُ عن منع دموعي وتلك الرّعشة التي أصابتني.

- هل تحبّينه حقًا يا "جاسمين" ؟ لأول مرة تحتمين بالكذب!
- لم أكذب يا أمّي ولكنّي فقط لم أخبرك بالأمر .
- وما الفرقُ يا "جاسمين"؟ لا تجعلي عاطفتك تجرفك لهلاكك دون أن تدركي حقيقة ما أنتِ مقدمةٌ عليه.
- فكّرت جيدًا يا أمّي، وكنتُ على وشك إخبارك بكلِّ التّفاصيل، فلن أتزوج دون أن تباركي زواجي.
- يا "جاسمين" الزّواجُ سرٌ مقدسٌ، وليس مجرد عقدٍ، وما يجمعه الرّبُ لا يفرّقه إنسانٌ ، تترك المرأة بيت أهلها وتلتصقُ برجلها ويصبحان جسدًا واحدًا لا جسدين، فأحسني الاختيار، ألا تخافين أن يعيّرنا النّاسُ؟
- لا يهمّني النّاسُ يا أمّي ، أليس هذا ما تربّيتُ عليه؟ ألم تعلّميني ألّا يهمّني غيرُ رضا الله وما يطّلعُ عليه ؟
- لكن يا "جاسمين" الحبُّ وحده لا يكفي، الحبُّ يجعلُ الحياةَ الزّوجية أفضلَ، لكنّه لا يضمنُ نجاحَه، يبقى التّفاهمُ والوضوحُ هما العنصر الأقوى لضمان استمرار الزّواج ، وهذا مستحيلٌ مع مَن يخالفك في دينك .

انفجرتُ باكيةً وفقدتُ السّيطرة على نفسي :

- لن أتزوّجَ أحدًا سواه، أو تستريحين منّي وأموتُ .

بحنانها الذي طالما احتوتني به ضمتني إليها :

- عليك بالصّلاة يا "جاسمين"، صلّي للرّبِ من أجل راحتك .. قال الرّبُّ " تعالوا إليَّ يا جميعَ المتعبين وأنا أريحكم"

ربّما بعدها تراجعين نفسَك وتعيدين اختيار الطّريق، سأصّلي من أجلك يا "جاسمين"، وثقي أنّكِ في كلِّ الأحوال ابنتي التي لن أتخلّى عنها مها حدث .

ارتميتُ على فراشي وكأنّي الهاربةُ من كلِّ الدّنيا، أبحثُ عن النّومِ ليغيّبَني عن الحياةِ .

الفصولُ الخمسةُ

الفصلُ الأولُ :

أمشي في الشّارعِ، هناك حفرةٌ عميقةٌ بجانبِ الطّريقِ ، أسقطُ فيها، أنا ضائعٌ وبلا عون ، ليست غلطتي، تطلّبُ منّي الكثيرَ لأتمكنَ من الخروجِ.

الفصلُ الثّاني من حياتي :

أمشي في الشّارعِ نفسه، هناك حفرةٌ عميقةٌ بجانبِ الطّريقِ. أتظاهرُ بأنّي لا أراها، أسقطُ فيها مرّةً أخرى، لا أكادُ أصدّقُ أنّي في المكانِ نفسه ، ليست غلطتي، ومرّةٌ أخرى يتطلّبُ وقتًا طويلًا للخروجِ.

الفصلُ الثّالثُ من حياتي :

أمشي في الشّارعِ نفسه، هناك حفرةٌ عميقةٌ بجانبِ الطريقِ. إنّي أراها، أسقطُ فيها مرةً أخرى، إنّها عادةٌ، عيناي تبصران،أعرفُ أين أنا، إنّها غلطتي، ثم أخرجُ منها بسرعةٍ.

الفصل الرابع من حياتي .

أمشي في الشّارعِ نفسه، هناك حفرةٌ عميقةٌ بجانبِ الطريقِ، أجدُ طريقي حولها .

الفصلُ الخامسُ من حياتي :

أمشي في شارعٍ مختلفٍ، أليس هذا رائعًا ، أن أمشي في طريقٍ مختلفةٍ .

سؤالٌ مِن بعيدٍ يلوحُ في الأفقِ، ما السّيءُ في اعتقادك ؟ وما الأسوأ ؟ وما الأشدُ سوءًا ؟

- السّيءُ أن تعيشَ في عماءٍ وأنتَ مبصرٌ في ظنّك وظنّ النّاظرين من حولك .
- وما الأسوأ ؟
- أن تعودَ للعتمةِ بعد أن نجّاك اللهُ منها وأخذ بيدك الى النّور.
- وماذا عن الأشدِّ سوءاً ؟
- أن ترضى العمى بعد أن جمّل الرّبيعُ حياتَك وعطّرتك مشاعلُ النّورِ.
- أن تخلو يدك ممن أفاضوا عليكَ محبةً وطمأنينةً وسكينةً ونورًا .

إلى مَن مرّوا بنا وتركوا ندوبًا بالغةً قبل أن نلوذَ بفصلنا الخامسِ من فصول حياتنا :

" أنا لن أعودَ إليكَ مهما اسْتَرْحَمتْ دقّاتُ قلبي، أنتَ الذي بدأ الملالةَ والصُّدودَ وخانَ حُبّي، فإذا دعوتَ اليومَ قلبي للتّصافي لا، لن ألبّي ".

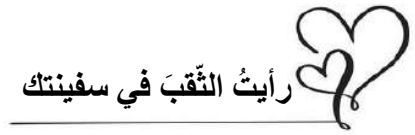

رأيتُ الثّقبَ في سفينتك

اتصلتْ "سارّة" بـ"أسامة"، وطلبتْ منه أن يحضرَ فورًا لمقابلتها ، أخبرته عن تغيّب "جاسمين" عن عملها منذُ عدة أيامٍ ، فأخبرها بما هو أسوأ ، انقطع "علاء" هو الآخر عن عمله، وأغلق هاتفه، وعند زيارته وجده في حالةٍ غريبةٍ لم يره عليها من قبل، يحبسُ نفسَه في غرفته، ويرفضُ تناول الطّعام ، سألته "سارّة"

- وماذا فعلتَ ؟
- جلستُ مع أمّه، وهي لا تستطيعُ منعَ بكائها، أخبرتني أنّها تخافُ عليه أن يؤذي نفسَه.
- وما الذي يجعلها تعتقد هذا السوء يا "أسامة"؟
- يبدو أنّه أصيب بانتكاسةٍ شديدةٍ يا "سارّة" ، فهو دائمُ الشّرودِ، يتجنّبُ الخروجَ من المنزل، يتحدّثُ مع أمّه بالكاد، ويهربُ أغلب اليوم إلى النّومِ .
- هذا ما تفعله "جاسمين" يا "أسامة" تقريبًا، فهي لا تغادرُ غرفتَها، وتنامُ أغلب ساعات اليومِ ، وإذا استيقظت تنخرطُ في بكاءٍ بلا توقفٍ .
- يا "سارّة" الأمرُ يزدادُ تعقيدًا، من كلامي مع أمّه لا تفسيرَ لكلامها إلّا أنّه يشعرُ بالذّنبِ والاشمئزازِ من نفسه، ولا يتوقفُ عن نقدِ ذاته، وإلقاءِ اللوم عليها طوالَ الوقت.
- ما الذي تريدُ أن تقوله يا "أسامة"؟

- أخافُ أن تكونَ الأفكارُ الانتحارية قد تسلّلت إليه ، لقد فقد شغفَ الحياةِ .

بثورةٍ عارمةٍ :

- ما الذي يجعلك تدّعي هذا الجنون يا "أسامة" ؟
- ليس جنونًا يا "سارّة"، وأنا في الطّريقِ إليكِ اتصلت بي أمُّه، وأخبرتني أنّها سمعته يتوصلُ مع شخصٍ ما، ويطلب منه أن يدّبرَ له سلاحًا ناريًا.
- وماذا تنتظر؟ ألحِقْ به فورًا، وأنا سوف أذهبُ إلى "جاسمين"، وسأظلُّ بجانبها حتى تمرَّ تلك المصيبة التي ألمّت بنا .

سارع "أسامة " إلى بيت صديقه ، لكن المفاجأة أنّه لم يجد أحدًا بالبيت، دارت به الدّنيا وذهبت به كلَّ مذهبٍ واتجاهٍ، فلربّما يكونُ قد انتحر، وقرّر أن يُنهي حياتَه، اندفع "أسامة" يهرولُ في الشّارع..سأل الجيران، أخبروه أنّ سيارة الإسعاف قد حضرت منذ قليل، كاد "أسامةُ" يُجَنُّ .. انطلق كالمجنون يبحثُ عن صديقه قبل فوات الأوان ، هذا إن لم يكن قد فات بالفعل ... وصل "أسامة" إلى المستشفى يركضُ بلا وعيٍ حتى وجد "علاء" منزويًا في أحد أركان المستشفى يبكي كالأطفال ... حاول "أسامة" أن يلتقطَ أنفاسَه، أين أنتَ يا صديقي؟ هل أنت بخير؟

انفجر "علاء" باكيًا :

- ماتت يا "أسامة"، أمّي ماتت من حسرتها عليّ، فارقني النّورُ الذي كنتُ أعيشُ من أجله، لم يعد لحياتي قيمة بعدها.

حاول "أسامة" عبثًا أن يقوّي من عزيمة صديقه ، ظلّ ملازمًا له حتى أنهى إجراءات المستشفى واستخراج تصريح الدّفن، وتواصل مع أقارب "علاء" بدمياط ، لم تمض سوى ساعاتٍ حتى تمّ تجهيز كلّ شيءٍ، سافر معه في سيارة تكريم الموتى، وظلّ معه حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل حتى تمّ الدّفنُ بمقابر العائلة بدمياط، حاول إثناء صديقه عن احتضان شاهد القبر شفقةً عليه، لكنّه أبى وأمسك بقلمه، وبدأ ينقش على الإسمنت الذي أغلقوا به مدخل القبر :

أمّاه إنّ اليومَ يومُ رحيلكِ .
والفقدُ صار معينَ النّبضِ يُشعلُ ذاتي .
أمّاه إنّ الدّربَ مَعلمُ غربتي .
يقسو ويُدمي ملمحي وحياتي .
أمّاه أرنو اليكِ أين سبيلكِ ؟
اشتاق دومًا قادمًا بِرُفاتي .
أجثو وأدنو ٌإليكِ أشبعٌ لهفتي .
ويزولُ عنّي الفقدُ في لقياكِ .

أبكت الكلماتُ "أسامة"، واقترب من صديقه وافترش التّربَ بجواره، استغفر الله يا "علاء"، وادع اللهَ لها بالرّحمة، وإياك والقنوط من رحمة الله، " قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ".. استبشر يا صديقي، استبشر بقول النبيّ ﷺ "ما

من مسلمٍ يموتُ يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنةَ القبر" وهذه من علامات حسن الخاتمة لأمّك .

ظلَّ "أسامة" بجوار صديقه يخفّفُ عنه ويُذكّره برحمة الله، وبعد محاولاتٍ مريرةٍ نجح في إقناعه بمغادرة قبر أمّه، وبات تلك الليلة معه ببيت جدّه .. ثلاثةُ أيامٍ مرّت على رحيل أمّه، وصديقه لا يفارقه.. بادره وهو يحاولُ أن يُخفّفَ عنه :

- هل تتحدث إلى "جاسمين" ؟ هل عرّفتها بوفاة أمك؟

وكأنّه في عالمٍ آخرَ، لا يشعر بما يدور حوله :

- " لقد رأيتُ الثّقبَ في سفينتك منذُ اليوم الأول للرّحلة، ولكنّني قرّرتُ الإبحارَ معك ظنًّا منّي بأنّ الحبَّ يصنعُ المعجزاتِ ...".

أبكت الكلمات "أسامة" ، وهو العاجزُ عن مساعدة صديق عمره :

- ماذا عن "عنيزة"؟ هل ما زالت تُشغّبُ عليك أحلامك، وتدخلان في الصّراعات الأدبية التي لا تنتهي ؟

وهو يخفي رأسه ويدفنها في تراب يديه .. لم أعد أحلم يا "أسامة" ، مَن لا يحلمُ لا يستحقُّ الحياةَ .

اضطر "أسامة" أن يسافرَ إلى القاهرة لعمل التّرتيبات الخاصة بإجازة عمل لصديقه، ومقابلة "سارّة" و"جاسمين"، فصديقه في خطرٍ داهمٍ ، ولا بدَّ من تقديم يد المساعدة ومدّ طوقِ النّجاةِ .

جلبابُ جدّي

في يوم رحيلك يا أمّي زادت عليّ شقاوتي والنّاسُ في عيني هياكلُ زائلةٌ ، ظلٌ كئيب يَدّعِي إحساسا، كم أدعو ربّي أن يفيضَ بفضله، يرحمَ ويغفرَ لكِ أمّاه ، وتكوني أنتِ اليوم في جنّاته، فردوس ربّي يكن مثواكِ .

- قضاءُ الله كلّه خيرٌ يا ابن الغالية، وإيّاك أن تظنَّ أنّ المصاب مصابك وحدك، ولا نقول إلا ما يُرضي ربّنَا، وإنّا على فراقها لمحزونون ... قالها جدّي وهو يحاولُ أن يبدو بثبات الجبال، رغم أنّي أعلمُ أنّه يكادُ يموتُ من فرط حزنه على ابنته.

قرّبني منه ومرّر يده الخشنة على رأسي، كما كان يفعلُ وأنا طفلٌ صغيرٌ حين كان يضعني في حجره ويرويني من حنانه، رغم قسوة الدّنيا وقسوة التّجاعيد التي وكأنّها ملازمة له منذُ أن جاء إلى الدّنيا .. على شعري يمرّرُ يده التي اختلطت بطمي بلادي وأرضها الطّيبة، وملابسه....آهٍ يا جدّي، لا زالت رائحةُ السّجائر تلتصقُ بملابسك، لم يسلم لك جلبابٌ واحدٌ يا جدّي دون أن تثقبه نيرانُ سجائرك.

ضحك ضحكاتٍ متقطّعةٍ، وكأنّه يحاولُ التقاط أنفاسه بعد عَدوٍ طويلٍ :

- تتذكّرُ وأنت صغيرٌ ما الذي كنتَ تصمّمُ عليه؟
- نعم يا جدّي، كنتُ أهربُ من بيت أمّي، وأركبُ خلفك على حمارك ، كنتُ أقلّدُ خالتي وهي تلتقمُ ضرعَ بقرتك،

وعندما تعلمُ أمّي يُجنُّ جنونها، وتلومك أنّك لم تحسن تربية ابنتك .. كنتُ أجلسُ على كتفيك .. وأقطفُ ثمارَ الجوافة والبلح من الأشجار والنخيل القصيرة ، وقبل أن ألتهمها تنزعها منّي بغضبٍ هزيلٍ لا يقاومُ حنانك، ثمّ تغسلها بالماءِ الذي يجري في أرضك فيخرجُ من رحمها الخيرُ و المأكلُ الحلالُ..أتذكّرُ يا جدّي حين كنتَ تخلعَ جلبابك وتفرشه لي على الأرض، وتنسابُ أنت ما بين طمي أرضك وحرِّ الشّمس ولهيبِ السّماء .

وهو يدفنُ دموعَه خلف تجاعيد السنين :

- متى تعودُ إلى عملك بالقاهرة ؟
- لن أعودَ يا جدّي، لن أتحمّل أن أصارعَ الذّكرياتِ ، في كلِّ ركنٍ من أركان البيت الذي فيه رائحةُ أمّي، صوتُها الذي يخالطُ أنفاسَ الغرفاتِ وعبقها، وحين تناديني كلَّ صباحٍ لأدركَ صلاتي ثمّ أخرجَ لعملي، سامحني يا جدّي لن أستطيعَ ، سأبيع هذه الشّقة .
- لا تتسرع يا بُنيّ ، كلُّ ما يهمني الآن أن تنفّذَ وصية أمّك التي أوصتك بها يوم موتها، رغم مرارة هذه الوصية.. قالها ولم يتمالك نفسه، وأجهش بالبكاء.
- صباحُ الخير يا جدّي، أين الخبزُ الفلاحيّ والفطيرُ بالعسل، والجبنُ القريش؟ قالها "أسامة" وهو يقطعُ علينا خلوتنا.

عمد جدّي إلى عكازه ليحارب به عوامل تعرية السّنين :

- ابن حلال يا "أسامة"، أتركك مع صديقك، ولا تقلق، طلباتك أوامر يا بُنيّ .

- لا حرمنا الله منك يا جدّي، ثمّ نظري نحوي...متى تعود معي إلى القاهرة ؟
- تتناول فطورك ثمّ أسافرُ معك .. لقد قرّرتُ أن أبيعَ شقة القاهرة .
- أنت مجنونٌ ؟ الكلُّ يتقاتلُ لشراء عُشَّ عصفورٍ يضعُ به قدمه بقاهرة المعز، وأنت بكلِّ سهولةٍ تتخلّصُ منها ؟
- لا تناقشني يا "أسامة" ، سأغادرُ مصر، لن أتحمّل فيها البقاء.

وكأنّه ترنّح من فرط المفاجأة :

- تغادرُ مصر! هل ستهاجرُ؟
- ربّما .. لا أطيقُ البقاءَ يا "أسامة"، أنا في حاجةٍ لإعادة ترتيب حياتي، هذا إن كان ما أنا فيه حياةٌ .
- ثمّ ماذا؟
- سأحاولُ محاولةً أخيرةً في تنفيذ رغبة أمّي ووصيتها، رغم أنّي أعلمُ أن مصيري الفشلَ، ليس بغريبٍ أن أفشلَ مجددًا يا "أسامة".

وهو يلتهم ما وُضع أمامه من طعام :

- أخوك كالعادة في حاجة لمساعدتك ، أريدُ أن أغازل حبيبتي برسالةٍ غرامية ، أعلم أنّ الدَيْنَ يتضاعفُ ، ولكنّي قدرك الذي لا يفارقك ، احْمَد الله أنّي في حياتك، قالها وهو يحاولُ انتزاع الضحكاتِ منّي رغمًا عنّي .
- لن تعجبك آخر رسالة كتبتها يا "أسامة"، لأنّها والوهمُ سواءُ .

- أرسلها لي عبر تطبيق الواتس آب، ودعني أحكم عليها.
- لقد أوهمونا بامتلاء سفينتنا بالثّقوب، وأنّها لن تقو على الإبحارِ كثيرًا، بل وسرعان ما تتلاعبُ بها العواصفُ والرّياحُ وتتسرّبُ إليها المياهُ وتستقرُّ بنا لا محالةَ في قاع المحيط ، وتُجاورُ غيرها من سفن المحبين الذين لم يُحسنوا التّقدير.. كانت الثّقوب وهمية حبيبتي، كان سحرَ تخييل، " فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ "، تبقين أنت حبيبتي، تبقين وطني وجنتي .

ترك الطّعامَ من يده :

- متى كتبتها يا "علاء"؟
- صباحُ اليوم الحزين .
- وهل أرسلتها إليها ؟
- لا يهم يا "أسامة" ، دعنا نستعد للسّفر، أريدُ أن أتحرّرَ من قيد وصية أمّي رغم أنّي أثقُ أنّ تباشير الفشل ستحتفي بنا عمّا قريبٍ .

ضغط على يدي بقوة، استعن بالله ولا تعجز .

- ليكن ما يكونُ يا "أسامة"، وليفعل اللهَ ما يشاءُ .

الطريقُ إلى قلبِ الرّجلِ

في طريقهما للخروج من مطار القاهرة :

- **أخيرًا استرحنا من هذا الكابوس ... قالها "أسامة" وهو يسابقُ "سارّة" في تناول بعضِ الأطعمة السّريعة .**
- **لم يكن كابوسًا يا عزيزي، كانت محنةً ، لولا يدُ اللهِ التي تنزّلت بلطفه ورحمته ، كم سأفتقدك يا ستَّ النّساءِ...**
- **وأنا أيضًا ....**

نظرت إليه نظرةً جمّدت العروقَ في دمه .

- **وأنت ماذا ؟**

وهو يتراجعُ خطوةً إلى الخلف :

- **وأنا أيضًا كم سأفتقدك يا "علاء"، وأفتقد رسائلك الصّباحية.**

في ثورةٍ عارمةٍ :

- **هل كنت تخدعني يا "أسامة" ؟ كنتَ تستعيرُ رسائلَ الحبِّ من صديقك ثمّ تعيدُ إرسالها لي كلَّ صباحٍ ؟ نهارك أسود بسواد شعر رأسك .**

وهو يحاولُ تجنّبَ ضربتها :

- **لا تظلميني يا "سارّة" ، هو كان يرسلها مكتوبة ثمّ أسجلّها أنا بصوتي، أظنُّ أنّ الفارقَ شاسعٌ يا عزيزتي.**
- **ظننتك رومانسيًّا يا "أسامة"، خدعتني بكلامك المعسول، ماذا تعرفُ عن الحبِّ ؟**

ينظرُ نحو السّماء وكأنّه يستدعي الإلهام :

- " الحبُ تضحيةٌ، تقبلٌ وأمانٌ، اهتمامٌ، احترامٌ، سندٌ، سرُّ السّعادةِ ومظهرها للنّاظرين، الطّيبةُ والدّفءُ، الرّحمةُ، حبُّ عيوبِ مَن تحبُّ وتهوى قبل أن تحبَّ مميزاته، الحبُّ أفعالٌ، مشاركةٌ، لا امتلاكٌ..وأصدقُ الحبِّ عندما لا تدري لماذا تحبُّ ؟ ".

حدّقت نحوه :

- أسامة !
- سأعترفُ لكِ ، استعرتها منه كالعادة .

بنبرة الجلادين، "أسامة" .. ماذا تعرفُ عن الحبِّ ؟

بنظرةٍ ساخرةٍ : أمامنا وقتٌ كافٍ...

- ماذا تقصد؟
- الحبُّ يا "سارّة" أن نذهبَ إلى منطقة الحسين وخان الخليليّ، وأدعوك إلى فطورٍ معتبرٍ يُدّعم عضلة قلبك، ويُرمّم عظامك، الحبُّ أن أشاركك في المطبخ في إعداد ما لذّ وطاب .
- بنظرةٍ متعطشةٍ : تشاركني ! في المطبخ !
- نعم يا حبيبتي ، مطبخ بيتنا .. ثمّ في حركة بهلوانية يخرج من حقيبته عُلبة من الشكولاتة التي تدمنها "سارّة" ويقتربُ منها : هل تقبليني بعلًا لكِ يا "سارّة نفتخر سويًا بكرشنا، وهو يكبرُ أمام أعيننا يومًا بعد يوم؟
- أخيرًا قلتها يا ابن.....
- احترمي نفسك يا "سارّة" .
- يا ابن الحلالِ .

فلاش باك

باتفاقٍ مسبقٍ بينها وبين "أسامة" كانت "سارّة" قد سبقت إلى بيت صديقتها جاسمين، ولحق بها الصديقان ، وافقت أمّ "جاسمين" على تلك الزّيارة، وبعد إلحاحٍ وافقت على اقتراح "سارّة " بجلوس "علاء" مع "جاسمين"، لعل هذا اللقاء يُخرجُ "جاسمين" من حالتها التي تدهورت بشدة .. بمجرد أن أخبرتها أمّها بانتظار "علاء" في الصّالون طارت من سريرها، وأسرعت باستبدال ملابسها ووضع القليل من المكياج لعلّها تداري أثرَ الدّموع والأحزان.

جلستْ بالكرسّي المقابل له، وكلاهما يتحاشى النّظَر نحو الآخر، ساد الصّمتُ عدّة دقائق حتى قاطعته هي...

- أعتذر لك عمّا حدث في آخر لقاءٍ بيننا، لم أتصوّر أن تتطورَ الأحداثُ بتلك الصّورة السّخيفة .

رفع عينه ناحيتها بابتسامته التي اعتادت أن يحتويها بها :

- لا عليكِ يا "جاسمين" ، لستِ في حاجةٍ إلى تبرير، ما بيننا أكبرُ من كلِّ شيءٍ .
- تقصد أنّك ...

اقترب منها وأمسك بيدها يقبّلها :

- أخبرتني أمّي بكلِّ شيءٍ قبل موتها.
- بماذا أخبرتك ؟
- أخبرتني بزيارتك لها، بأنّي كنتُ حالة...
- علاء ....

وضع يده على شفتيها :

- كنتُ يا "جاسمين"..أخبرتني أنّكِ توقفتِ عن استكمال رسالة الماجستير، حتى نختارَ سويًا موضوعًا آخر، أخبرتني أنّكِ تحبينني بصدقٍ ، وأنّها لن تطمئنَ عليّ بعد موتها إلّا ونحن معًا.

ارتمت في حضنه :

- آسفة حبيبي، لم أقصد أن أتسبّبَ لكَ في كلِّ هذا الجرح .
- هل قرأتِ رسالتي الأخيرة؟

ابتسمت ابتسامةً خجولةً :

- تعوّدتُ أن أسمعها بصوتك .
- صباحُ الخير يا ستَّ النّساء ، الحبُّ يصنعُ المعجزاتِ إذا صدقت النّوايا وتعانقت الأناملُ وامتزجت الأرواحُ والقلوبُ، قالوا : إنّ سفينتَا لن تصمدَ ، ونسوا بأنّ للسفينة ربٌ يحميها ويسيّرها وينجّيها من الطّوفان، آمنا بحبّنا، فبقيت سفينتُا رغمَ كلِّ الأهوالِ ، شددنا وثاقَ حبّنا فاستحال جحيمُ الماكرين بردًا وسلامًا علينا حبيبتي ، أمّا عن إمكانية غرق سفينتا، فلا شكّ أنّه واردٌ اذا انفلتت أيدينا وتسرّب الشكُّ الى قلوبنا وتلاعبت بنا الظّنونُ، أحببتك وارتضيت بكِ رفيقةَ رحلتي ومليكتي ووطني الذي لا يخونُ ".

احتضنت يده :

- وأنا على العهد الذي جمعنا، لكن....
- لكن ماذا يا "جاسمين" ؟

- أمّي .. قالتها ولم تستطع التّحكمَ بدموعها .
- لا تقلقي ، هناك مفاوضاتٌ شاقةٌ جاريةٌ الآن يقودها المندوبان الساميان ؛ " أسامة" و"سارّة"..
- هل تظنُّ أنّهما سينجحان ؟
- هما يسعيان في خيرٍ حبيبتي، أتظنين أنّ اللهَ سيتخلى عنّا؟
- كم تمنّيت أن أموتَ ،ولا يصيبك مكروهٌ حبيبي، كيف تجاوزت عتمة تلك الليالي ؟

وضع رأسَها على كتفه :

- المكروه في بعادك حبيبتي، حين ضاقت بي الدّنيا وفكّرتُ في مغادرتها سألت نفسي .. لماذا أحببتها ؟
- وبماذا أجبتها ؟
- ربّما لأنّك حرّيتي .. ربّما لأنّكِ إرادتي التي فرحتُ بها لأول مرّةٍ ، وأنا أقتحمُ بكِ الظروفَ، وأحطّمُ كلَّ ما حولي من معاقل الشرِّ لأصلَ إليك .. ربّما لأنّكِ " أنا " وقد ظفرتُ بكِ وبنفسي في ذات الوقت" !
- وهل وجدتَ تفسيرًا يبدّدُ تلك العتمة ؟
- أحببتك محاولاً تفسير حبّي واندفاعي فيك، حتى وجدتني أبخلُ بجهد التّحليل والتّفسير، لأن حبّك يستحقُّ كلَّ الجهدِ، وكلَّ الوقتِ، وكلَّ المشاعرِ، وكلَّ الاهتمامِ والتّفكيرِ.
- وهل تحرّرتَ يا "علاء"؟
- نعم ، تحرّرتُ من سجون القيد وأصفاد الاستعباد بحبّك، فكان عشقُك مرادفًا للحرّية، وثمرةً يانعةً قطافُها دانيةٌ

وظلّها يحتوي كلَّ ثوراتي ولهيب براكين التّحرّرِ والاندهاشِ .

- أتدري حبيبي ؟ كنتُ أعلمُ أنّك ستأتي، كنتُ أشعرُ بأنفاسك تُعطّرُ غرفتي، وهمسك يدعونني إلى الأمل، كنتُ أراك تبتسمُ من خلف نافذتي، تهمسُ بأذني.. " اطمئني، فأنا لكِ ".
- أنا لكِ يا "جاسمين"، هذا ما جعلني أتمسّكُ بالحياةِ وأحبّها، بدلًا من اختيار الموت قرّرتُ أن أعيشك أنتِ، أحيا بكِ ولكِ...

بنظرة الخجل :

- الحديثُ استغرقنا ، تعال نسترق السّمعَ من خلف السّتار.

كان الحوارُ على أشدّه مع أمّ "جاسمين" التي رفضت رفضًا قاطعًا فكرة زواج ابنتها ممّن يخالفها في العقيدة ، ولكن مع إصرار"أسامة"و"سارّة"وما يملكانه من فنون الحيلة والدّبلوماسية، بدأت تلين شيئًا فشيئًا .

- تذكري يا أمّنا أن ابنتك أحرص ما تكونُ على رضا ربها.. لو كانت تفكّرُ في نفسها لكانت هربت معه دون علمك .. ووقتها سيلحقُ بكم العارُ على حقٍّ، قالها "أسامة" وهو يشاركُ "سارّة" التهام قطع الكيكِ ، مع أضافةٍ طفيفةٍ .. فهو يضعها بكوب الشّاي ثم يدفعها إلى فمه.

وهي تنظرُ إليه نظرتَها الحادّة ليلتزمَ فن الإتيكيت :

- وافقي يا أمّي، باركي زواجهما، ألا تشتاقين إلى روية أحفادك ؟

ابتسمت أخيرًا، وهي تجفّفُ دموعها :

- لكن بشرط .

"سارّة "و"أسامة" بصوتٍ واحدٍ :

- كلُّ شروطك مجابةٌ.
- أن يسافرا خارج مصر حتي تهدأ الأمور.
- موافقين .. قالها "أسامة" و"سارّة" وهما يجذبان "علاء" و"جاسمين" من ذراعيهما من خلف الستار..

لم يضيّع "أسامة" الفرصةَ، وسارع بالاتصال بأحد المحامين الثّقات، واستدعاه للحضور إلى بيت "جاسمين"، وبترتيبٍ سريعٍ واستعدادٍ بسيطٍ تمّ تحريرُ عقدِ زواجهما.

نظر "أسامة" نحو "علاء" بعد أن تمّ تحريرُ العقدِ :

- يمكنك الآن أن تُقّبل زوجتك يا "علاء "

جذبته "سارّة" من طرف ملابسه :

- بعد إذن أمّها طبعًا .

مرّت السّاعات وكأنّها حلمٌ رقيقٌ ..

سألته وهي لا تكادُ تصدّقُ فرحتَها :

- ماذا ستقولُ لهم إن سألوك عنّي؟

ضمّها إليه :

- إنْ سألوني عَنكِ يومًا سأخبرُهُم أنَكِ إكليلُ ياسَمينٍ يُعانِقُ أيامي، وإن سألوني عنك حبيبتي، يكفيني عيني حين تفضحُ لهفتي واشتياقي وجنوني حين ألمحُ طيفك وتشرقُ شمسُك لتبدّدَ ليلَ ظنوني، وإن سألوني عنك سأخبرهم أنّكِ سبيلُ اعتدالِ طقسِ أيامي بعد عواصفَ لا تنتهي وبروقٍ ورعودٍ، إذا سألونّي عنك غاليتي سأخبرهم أنّك ملامحُ الجمالِ في حياتي، ورحمةُ ربي بعد قسوةِ الدّنيا وغدراتِ القلوبِ، إذا سألوني عنكِ حبيبتي يكفيني أن أشيرَ إلى ضلعي يا كمالي واكتمالي وفرحتي .

وكأنّها تستيقظُ من حلمٍ جميلٍ، نظرت"سارّة"إلى "أسامة":

- شاهد وتعلّم يا "أسامة" ، صبّرني يا ربّ .

في محاولة للانفكاك منها :

- حان وقت الانصراف يا صديقي .

كان الاتفاقُ أن تتوقف اللقاءات حتى يُنهي "علاء" إجراءات سفره ، ثم تلحقُ به "جاسمين" بعد عدة أشهرٍ من تاريخ مغادرته لوطنه... مرّت الأيامُ سريعة ، حتى جاءت اللحظة الحاسمة، وخرجت أمّ "جاسمين" تودّعُ ابنتها بمطار القاهرة بصحبة كلٍّ من "سارّة" و"أسامة"، على أملٍ في لقاءٍ قريبٍ بعد أن تهدأ الأمورُ.

يومًا ما

بعد وصوله إلى مطار زيورخ، بدأ في ترتيب الإجراءات الرّسمية الخاصة بفترة تواجدهما بسويسرا، أمسك بهاتفه وبدأ يكتبُ لها عبر تطبيق الواتس آب..

- **يومًا ما حبيبتي يجمعُ اللهُ شتاتنا وتلتئمُ جراحاتنا، يومًا ما غاليتي يصيرُ حديثُنا همسًا ونبراتنا دمعَ فرحةٍ وفتنةَ عناقٍ ولذةَ لقاءٍ .**

تحوّلت العلامةُ التي تجاورُ الكتابةَ إلى اللون الأزرق .. أشرقت ملامحه، كتبت له :

- **يومًا ما تختلطُ جواربنا وملابسنا حبيبي، ثم تعاني عناقًا مريرًا في رحمِ غسالةِ الملابسِ.**
- **مثلها مثلُ أجسادنا عندما تتداخلُ وتلتفُ كأغصانِ الشجرِ، حين يدركُ جميعُ شجرِ البستان أنْ ليس لتلك الأغصانِ ثمّةَ تباعدٌ أو انفكاكٌ.**
- **نعم حبيبي، يومًا ما نتشاركُ لُقيماتنا.**
- **ويُحلّى شرابي بعسلك وسكرك !**
- **نعم ، نعم حبيبي .**
- **يومًا ما تتعلقين بذراعي وتعودُ أصابعي إلى موطنها الأصليّ من بعدِ غربةِ السنين، فتسكنُ الفراغاتُ التي بين أصابعك، فتسكنُ جراحي، ويهدأُ لهيبُ نفسي وبركانُ الاشتياقِ ولو إلى حينٍ.**

- تذكرُ يا "علاء" حين كنتَ تتخيلُ اليوم الذي تضّمنا الطّرقاتُ والشواطئُ والملاهي ودورُ السينما ودورُ العبادةِ والمطاعمُ وقطاراتُ المترو والطّائراتُ والسّياراتُ ؟
- أكملي... فيظنّنا الرائي توأمين أو عاشقين لعبت بعقولهما خمرةُ الهوى والحبِّ .
- غدًا حبيبي تحنو علينا الدّنيا من بعدِ قسوةٍ وجفاءٍ .
- غدًا غاليتي نلتقي، فأستقرَّ في حضنك وحماك يا ستَّ النّساءِ .

مطار زيورخ

بدا عليه التّوترُ الشّديدُ وهو ينتظرها.. الوقت لا يمرُّ، شريطُ الذّكريات لا يغادره، أول مرّةٍ وقعت عينه عليها، اللحظة التي تعلّق بها، ووجد فيها الأنثى الكاملة التي عاش عمرَه يبحثُ فيه عنها، ما بين لحظات الشّوق ومرارة الفراق، قرر أن يكتبَ إليها عبر تطبيق الواتس آب :

- حبيبتي، كلُّ مكانٍ يجمعنا وطنٌ ، يقولون:"إن لم نكن مع مَنْ نحبُّ فنحن لاجئون أينما كنّا"، ومَن قال : إنّ الدّنيا بأسرها لها قيمةٌ أو معنىً إن لم نكن في أحضانِ مَنْ نحبُّ ونهوى! ما قيمةُ دقاتِ قلبٍ خاليةٍ من حروفِ اسمك حبيبتي؟ بل ما قيمةُ اللغةِ إن لم تُعبّر عن شوقي لكِ واحتراقي في بعادك ؟ يا فرحةَ قلبي حين نكونُ معًا ! ويا عذابَ قلبي ووجعه إن باعدت بيننا الأيامُ وسوادُ لياليها التي ماتت فيها نجومُ السّماءِ، وانتحر على أعتابِ عتمتها القمرُ!، إن كنّا معًا فكلُّ مكانٍ يجمعنا وطنٌ، وكلُّ زمانٍ يضمنا جنّةٌ، وإن نالت منّا الفرقةُ بقسوتها، فلا شكَّ أنيّ لاجئٌ تعلّقَ قلبه بساعةِ الحرّيةِ وأملِ العودةِ ولحظةِ العناقِ ، أحبّك يا جنّتي ودنيتي وموطني وحورَ عيني والحياة.

قطعت عليه كتاباته وشريط ذكرياته حين بدت من بعيد، اندفع إليها من بين حشود المسافرين فتعلّقت به، غير مبالين بالبشر ولا المكان ولا الزّمان، اختلطت دموع الفرح وأنين الشّوق ولهفة اللقاء ، جلسا لأقرب مقعدٍ، ثمّ أمسك يدها وهو يُقّبلها :

- اكتملت القصّة القصيرة التي قرأت بدايتها لكِ ونحن بحضور زرقة النّيل وزرق السّماء وزرقة البحر العميق.

نظرت نحوه مبتسمة :

- هل هناك أعمق من عينيّ حبيبي؟

عانق يديها، وبدأ يقرأ....

- " في ليلةٍ باردةٍ من ليالي مطار زيورخ، في أحد أركانه الأكثر صمتًا بين ضجيج المسافرين، يقفُ وحيدًا، أسير التّوتر والقلق، بالكاد يسيّطرُ على رعشة يديه وتوترها، يلتصقُ بهاتفه، يبدو أنّه يتواصل مع شخصٍ ما، في رحلة من رحلات الطّيران بين القاهرة وسويسرا ، عبثًا يحاولُ أن يسيّطرَ على نفسه، يصارعُ ارتباكه، يعاني خليطًا غريبًا من المشاعر والأحاسيس؛ خوفٌ وقلقٌ ولهفةٌ وفرحةٌ ورجاءٌ واشتياقٌ، عيناه لا تفارقُ لوحةَ الإعلان عن حركة الطيران، يتصاعدُ القلقُ، وكأنّه يصّعدُ في السّماء، يبدو أنّ الاتصالَ بالطّرفِ الثّاني انقطع تمامًا، الحالة على لوحة حركة الطّيران تتغيرُ، ولونه كذلك، وصلت الرّحلة؛ الرّحلة قيدُ النّزول؛ الرّكابُ في انتظار الحقائب.. يقفزُ من مكانه؛ رسالة نصية بوصول الطّرف الثّاني لأرض المطار؛ مسألة وقت لا غير، خَتْمُ جواز السّفر إيذانًا بالختم على أحزانه بالخروج النّهائيّ من قلبه بلا عودة أو رجوع، عيناه لا تفارقان حركة خروج ركاب الرّحلة، أخيرًا ... ظهرت حبيبته من بعيدٍ وهي تجرجرُ حقيبة سفرها وتجرجرُ معها إرهاقَ السّفرِ الطّويلِ، طافت بعينيها في كلِّ المحيطين، بدا

عليها القلقُ، اتصلت بحبيبها، ردّ عليها بصوتٍ ملؤه الشوقُ والقلقُ، طلب منها أن تتحرّكَ للأمام، ظهرت على مسافة عشرين مترًا تقريبًا، تلاقت العيون وطارت القلوب، اندفعت نحوه دون أدنى اعتبارٍ لأحدٍ، تناست تعبها، أمّا هو فما عاد يرى سواها ولا يسمعُ غيرَ صوتها، تعانقت الأيادي بنظرة الخجل وحرارة دموع حلاوة اللقاء".

كعادتها التي تشاركها فيها كلُّ أنثى :

- ستظلُ تحبني ؟

وهو يضّمها إلى صدره :

- نعم ، سوف أظلُّ أحبّكِ للأبدِ حبًّا سرمديًّا لا ينتهي، حيثُ اللازمانُ وأبديةُ المكانِ، حتى بعد احتراقِ النّجومِ، وحتى بعد فناءِ العوالمِ .

وهي تعبث بلحيته :

- حتى وإن جفّت الأنهارُ وتلاشت البحارُ، حتى بعد تصادمِ الكواكبِ وانطفاءِ الأقمارِ !
- نعم حبيبتي، سأظلّ أحبّك، حتى وإن شاخت ذاكرتي، فلن أعجزَ أن أقولَ لكِ : حبيبتي، ولا أن ألوذَ بحِضنك وتطمئنَ نفسي في حضرةِ حبّكِ ودفءِ هواكِ، حتى وإن عجز لساني عن نطقِ حروفِ اسمك، فنبضاتُ قلبي من نبضِ قلبك، وحروفُ اسمك دمي وأنفاسي، وحين يتوقفُ قلبي عن نبضه...
- حرامٌ عليك، لا تقلها مرةً ثانيةً ، أرجوك.

- هذه مرحلةٌ بينةٌ حبيبتي، لا تقاسُ بسرمديةِ ما بعد البعثِ والنّشورِ، وحينها سأظلُّ أيضًا أحبّك وأحبّك أبدَ الآبدين حبيبتي .
- أخبرني ..." قل لي أيا رجلًا لأي قبيلةٍ ولأي عصرٍ أو لجنسٍ تنتمي ؟ ولمّن تعودُ أصولُ عينيك التي أضحت قناديل الضّياء بعالمي؟ "

قبّل أطرافَ يديها ، ولونُه أشدُّ حمرةً من قرمزية الشّمس وهي تعانقُ بحر مدينة رأس البر لحظة الغروب ، تعلّقت برقبته، وكأنّ العالمَ بأسره لا يضمُّ سواهما، صورةٌ مكررةٌ من أدام وحواء، سارا متلاصقين في طريقهما لمغادرة مطار زيورخ، وملء عيونهما فخرٌ ونشوى وانتصارٌ .

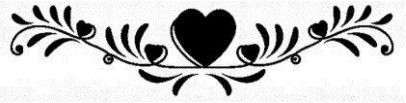

أعمال سابقة للكاتب

للتواصل مع الكاتب

تواصل مع الكاتب واتس آب

قيم أعمال الكاتب على الجودريدز